الإسلام

والقومية العلمانية

الطبعة الثانية

عبد السلام ياسين


الإسلام
والقومية العلمانية



الكتاب: الإسلام والقومية العلمانية

تأليف: عبد السلام ياسين

الطبعة الثانية: 1444هـ/2023م

الرقم الدولي: 978-605-72076-0-9

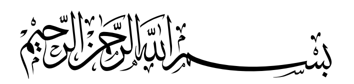
الطباعة والنشر: دار إقدام للطباعة والنشر

عبد السلام ياسين



والقومية العلمانية

الطبعة الثانية


بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

هذا الكتاب يطمح إلى عرض مسألة لا يمكن للفكر الإسلامي أن يتجاوزها: هي مسألة القومية وعلاقتها بالعلمانية.

إن المثقفين المسلمين، من بقي منهم على موروثه الفطري الإسلامي ومن تنكر لدينه، ينشغلون انشغالا كثيرا بالبحوث في التراث والأصالة والأمجاد القومية، ينسجون من كل هذه المفاهيم طيلسانا يتقنعون به ليزدان في أعينهم الواقع الكئيب لمجتمعاتهم. في هذا الكتاب نصطنع اللغة التي يألفها المثقفون لنحاورهم محاولين إسماع كلمة الإسلام.

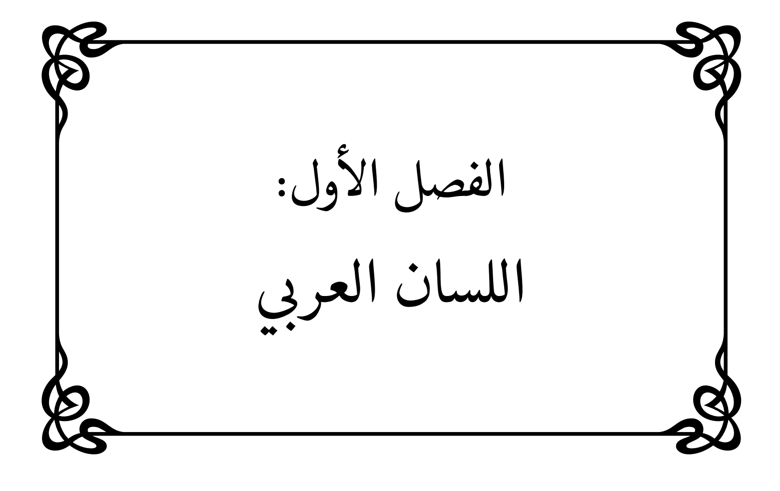
إن الله عز وجل حين خلق الإنسان وذرأه لم ينبته في أرض عراء، وإنما أنشأه في حضن قوم رعوا نشأته. فمن الفطرة التي يتخذها الإسلام أساسا عليه يكمل البناء العاطفي الفكري السلوكي للمسلم: أسباب الصلة بين الإنسان وقومه. حيث يأمر دين الله القويم بحسن صحبة الوالدين وذوي القربى ولا ينكر إلا الحمية الجاهلية وهي العصبية القومية.

في هذا الكتاب نعرض إن شاء الله لشيء من تاريخ الإيديولوجية القومية التي نبعت في أرض غير أرضنا فاستوردها المثقفون المغربون من ذرارينا ليركبوا متنها في كرّاتهم التي تحمل شعارات الإلحاد المفلسف تارة والردة والزندقة مرة والإلحاد العلمي أحيانا والأصالة التراثية أحيانا أخرى.

ومن خلال العرض التاريخي نقول رأينا الإسلامي.

وعلى الله قصد السبيل

عبد السلام ياسين، سلا 15 ربيع الثاني 1409



الفصل الأول:

اللسان العربي

الولاء للغة

إن ألفاظ كل لغة تحمل المعاني الدارجة عند أهل كل لغة كما تحمل اللغة بمجموعها، نحوها وتركيبها وبلاغتها، شعرها ونثرها وأمثالها، تجربة الشعب الناطق بها، حساسيته وفكره وأسلوبه في الحياة ونظرته للإنسان، ومكانه في الكون، ومصيره وقيمه. لكنها تمثل في نفس الوقت رباطا أساسيا يلم المجتمع، رباطا يقرب بين الناس وإن اختلف العرق واختلف الدين.

فإذا كان الرباط الديني ضعيفا بانسلاخ الناس عن الدين، واجتمع رباطا العرق واللغة فقد يستطيعان حرب الدين ويكونان خطرا عليه، وهذا بالضبط ما يحدث في بلاد العروبة، إذ نرى زعماءها، وفي مقدمتهم النصارى العرب الذين يريدونها قومية ناطقة بلغة الضاد لا بلغة القرآن، ينشدون أمجاد اللغة العربية، ويتيهون هياما بها ويرفعونها مكانا ساميا.

إنها نوع وثنية، حيث تستحيل اللغة هي الروح، هي الأصل والفصل، هي الحاضر والمستقبل، هي التاريخ والحقيقة، هي الكل.

ولاء العرب القوميين للغة التي نزل بها القرآن كولائنا للقرآن. نحب هذه اللغة ونعتبرها كما يعتبرونها أجمل اللغات وأشرفها. وإذن فها قد وجدنا جسرا متينا للحوار والتقارب والتفاهم ما دمنا نعشق نفس الملاحة.

هكذا يخيل لمن يكتفي بملاحظة الظاهرة دون الكشف عن الأسباب أو لمن يسعى أن يمد الجسور ويبسط يد التفاهم بأي ثمن. عندما نغتبط بامتلاك لغة شرفها الله عز وجل واختارها لينزل إلينا فيها ذكره، يعتبر العروبيون بأن العروبة قدمت للإسلام وللقرآن هذه اللغة العبقرية. عندما ننظر إلى صنع الله عز وجل حيث خلق قوما ودرجهم في أطوار النشأة حتى تطورت لديهم لغة كان اللّه عز وجل في سابق علمه هيأها لتكون وعاء لوحيه كما هيأ رجلا من بين أولئك القوم لتلقي ذلك الوحي، يرى العروبيون أن عبقرية الأسلاف ونباهة العرق وشرف الأرومة معطيات (موضوعية) أفرزت اللغة العبقرية وأفرزت النبي، فشتان ما بيننا. إن العروبة في محنتها التاريخية الحاضرة، وهي محنة المسلمين، تتشبث باللغة العربية كما يتشبث الغريق بيد منقذه، فعليها معولهم وإليها مرجعهم من كل خيبة. بها ومنها النهضة وبها الحياة والبطولة، لسر عظيم يقدرونه لها كما نؤمن نحن بالله عز وجل وتأييده. يقول كي أرسوزي وهو من المؤسسين الأولين لحزب البعث العربي ورواده: «أمنية كل عربي هي أن يكون بطلا، وأن يكون شاعرا، ينشد روعة أعماله ومناقب أجداده». إن ذلك يتم «بالعودة إلى لغتنا التي هي أبلغ مظهر لتجلي عبقرية أمتنا، إن لغتنا لهي مستودع تراثنا، فإذا ما وعينا ما تضمنت كلماتها من حدس، بلغنا ما بلغ أجدادنا من عزة وسؤدد. مثل كلمات لغتنا كمثل البذر من النبات. تضمر (يقصد تختفي) فيها المعاني ضمور الحياة في البذر (...) فقد أصبح البعث عندنا العودة إلى الينبوع، إلى الحدس المتضمن في الكلمات، كالعدالة والنظام والشعر والجمال...».[1]

(1) نقلا عن مجلة «الفكر العربي» العدد 22، شتنبر 1982.

تأثير الشاعرية الرومانطيقية لفلسفة فخت الألماني واضحة. وقد كان لفلاسفة الألمان دعوتهم إلى اللغة الألمانية الممجدة في خطابهم وفكرهم اليد الطولى في استنهاض الحماس الشعبي الذي مهد لتوحيد ألمانيا.

العروبة والإسلام

في اللغة يكمن المخزون الحدسي، ينبوع العبقرية والحياة في نظر العروبيين. مجرد الرجوع للغة يفتح مصبات ذلك الينبوع الثرار، وتلك أحلام تناسب تماما الانفعالية القومية التي تتجلى في ميدان السياسة شعارات ملتهبة، وتعوض الهزائم العسكرية والفشل في الحكم والوعود المخلفة في ميادين من الاقتصاد بالخطب الرنانة التي ترفع العربي القح إلى سماء السؤدد والنخوة منذ عهد أجدادنا في عكاظ ومحافل العروبة.

امتداد بين الجاهلية والإسلام في العاطفة والانفعال، و«العبقرية»، كما هو امتداد في النسب. هكذا الأمر في الوعي القومي. وما الإسلام إلا ظاهرة طارئة، ثمرة من ثمرات الأمجاد العربية.

أما نحن فإن لنا تعلقا خاصا باللغة القرآنية، تعلقا هو من الدين، من صميم الدين، لأن شكل اللغة لا يمكن فصله عن مضمون الرسالة. اللغة العربية هي الوعاء، هي الرحم، هي الجسم، جمالها ليس هو القيمة، لكن القيمة ما حمله إلى عقلنا وقلبنا ذلك الجمال، بيانها ليس الغاية والمنى لكن ما أبانه من معان. قال الله عز وجل: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1]. وقال عز من قائل يخاطب رسوله ﷺ: ﴿لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾[2].

(1) سورة الزخرف، الآية: 3.

(2) سورة الشعراء، الآيتان: 194-195.

ثم إن القرآن كلام اللّه عز وجل لفظا ومعنى، ما هي الألفاظ العربية من كلام الله حتى تكون في التركيب القرآني. وعندئذ فقط يكون اللفظ بالقرآن في الصلاة مجزئا، وتكون الصلاة صلاة. وما من مسلم ومسلمة يحرصان على دينهما إلا يتعلمان حدا أدنى من القرآن الكريم بلفظه العربي، فيكون ذلك وصلة لكلام الله عز وجل، وشرطا في صحة العبادات وشعورا إيمانيا لا يعوضه شيء غير التبلغ أو التضلع من الكتاب العربي المبارك.

إن من أسماء القرآن الكريم «الذكر». هو تبصرة وذكرى في أعماق الفطرة الإنسانية، استعداد لسماع النداء الإلهي الذي يتضمنه القرآن. لذلك نشاهد تأثير القرآن الكريم متلوا مجودا أو مقروءا نصا على السامع والقارئ. فما بالك بتأثيره على العرب الأولين الذين سمعوه سمعين: سمع الفطرة وسمع الاستعداد الخاص بأذن عربية وعاطفة عربية واستئناس بالبلاغة والجرس. فالقرآن يذكر الناس بما في أعماق الفطرة، ويذكر العرب على مستويين اثنين.

ما من كتاب سكن في أعماق أهل لغة ما سكن القرآن. ولا كان أبلغ تأثيرا، ولا أشد حفزا للعزائم ولا أدعى للاحترام والتقديس. ولا أقدر على صرف وجوه الناس وقلوبهم وعقولهم وجهودهم للجهاد ولا أدعى للاحترام والتقديس. ولا أقدر على صرف وجوه الناس وقلوبهم وعقولهم وجهودهم للجهاد حتى الموت في سبيل الله. ما كان ذلك ولا يكون بخاصية في اللغة العربية، إنما كان يكون بما تحملته اللغة العربية من بركات الوحي الإلهي، وما تغشَّاها من هيبته. إن الله تبارك وتعالى خالق العرب وخالق لغتهم

وخالق استعداداتهم الفطرية، وقد جعل سبحانه في المحل الذي اختاره لتجلي وحيه وظهور رسوله ورسالته ظروفا قابلة لتلقي كل ذلك، صالحة لحمله ونصره. وكانت عروبة العرب اللغوية مكملا لاستعداداتهم الأخرى المواكبة والمساعدة. اجتمع كل ذلك فتبلور خيرا وقوة، أخلاقا ورجولة، في القالب الإسلامي وبالروح الإسلامية.

لا ننكر أن للعرب والعروبة مزايا منيفة، لكن تلك الاستعدادات التي أصبحت مزايا بفضل الإسلام كانت رزايا في عروبة العرب الجاهلية. كذلك ننتظر ونرجو أن يعيد الله عز وجل رحمته بالعرب فتظهر في عرب اليوم تلك الاستعدادات التي هيأ لها الأسباب فظهرت أول مرة لتحمل عبء الرسالة، تلك الاستعدادات الفطرية العزيزة التي تكمن اليوم في العرب، ويطمرها أكثر ما يطمرها أحلام العروبة العلمانية التراثية وأوهامها.

مزية الكرم كانت في الجاهلية ذريعة ليعدو العرب بعضهم على بعض في الغارة، وليقامر بعضهم بعضا في الميسر، وليرابي بعضهم بعضا ليجمع ما به ينحر الجزر ويوقد نار القِرى وينال ثناء فحول الشعراء. علمهم الإسلام كسب الحلال وبذل الفضول، ليكون الكرم تكملة لنسيج المجتمع الأخوي. وهكذا الشجاعة العربية التي كانت تستنفد في الحروب والمبارزات والتناصر، رفعها الإسلام فأصبحت بأسا على أعداء الإنسانية. وهكذا شيمة الحرية والأنفة وإباء الضيم، رفعها الإسلام من حضيض العصبية القبلية –حضيض العصبية القومية اليوم– إلى ذرى العزة بالله ورسوله. وهكذا شيم

الوفاء وسرعة البديهة وحب المدح والثناء الحسن. الإسلام مجد العرب وشرفهم، فمتى اعتزوا بغير الإسلام ذلوا على حد قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

«جزء ماهيته»

هذه عبارة مألوفة عند علماء الأصول، معناها أن العربية جزء لا يتجزأ من الدين، إذ هي حاملته وحاضنته. ومتى دخلت العجمة اللسان، أو حال حائل العجمة دون فهم البيان فقد انغلق ما كان مفتوحا من أبواب الفقه وهو أعظمها، وسارعت إلى الناس الهلكة. أخرج البخاري في تاريخه الكبير أن الحسن البصري رحمه الله قال: «إنما أهلكتكم العجمة!».[1]

وقد اتفق علماء الأصول على أن أول آلات المجتهد فهم اللغة العربية فهما واسعا. وفصل الإمام الغزالي رحمه الله الكلام في الحد الأدنى من علم اللغة الضروري للمجتهد فقال: «إنه القدر الذي يفهم به الخطاب العربي، وعادتهم في الاستعمال حين يميز بين صريح الكلام، وظاهره ومجمله، وحقيقته ومجازه، وعامه وخاصه، ومحكمه ومتشابهه، ومطلقه ومقيده، ونصه وفحواه، ولحنه ومفهومه. وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ في اللغة درجة الاجتهاد».

يقتضي هذا أن يكون للمجتهد المتصدي لفهم كتاب الله وسنة رسوله التبحر التام في نحو اللغة وصرفها وبلاغتها حتى يستشف ما يحمله ظاهر اللفظ وما يستتر وراء التراكيب من دقيق المعاني ولطيف التعابير، بذلك فقط يمكنه أن يستخرج الأحكام الشرعية. فلا تقل صحة فهم اللغة عن أهمية صحة النص.

(1) نقلا عن كتاب «تاريخ المذاهب الفقهية» لأبي زهرة رحمه الله، جزء 2، ص: 110.

فإن دخلت العجمة في اللسان أو حالت عجمة القلب والعقل عن النفوذ إلى أسرار اللغة فلا أمل في أن يبلغ النداء الإلهي محله من الوعي، ولا أن تستشرف العقول المستعجمة المستغربة إلى مجالي العلم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ. ولا يغرينا تبجح قوم بفهم العربية، يتصدرون لبسط إيديولوجياتهم ينسبونها للإسلام ويلفقونها حول آيات من القرآن، يموهون باطلاعهم الموسوعي وبهرجة اللفظ وزخرف القول. روى الإمام أحمد رحمه الله عن سهل بن سعد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اللهم لا تدركني زمانا -أو لا تدركوا زمانا- لا يتبع فيه العليم، ولا يستحيى فيه من الحليم، قلوبهم قلوب الأعاجم وألسنتهم ألسنة العرب»، وليس المقصود من الحديث الشريف أعاجم اللسان من المؤمنين، بل عجمة القلب هي انغلاقه عن الإيمان.

من أهم الأسباب هذه العجمة القلبية العقلية انصراف ذراري المسلمين من هذا النشء المستغرب عن تلقي الدين من العلماء به، وتلقيهم عن فلاسفة الكفار. قال الإمام الشافعي رضي الله عنه: «ما جهل الناس ولا اختلفوا إلا لتركهم لسان العرب وميلهم إلى لسان أرسطوطاليس» لا شك أن ما قصده الإمام بلسان أرسطوطاليس ليس اللغة اليونانية في حد ذاتها، لكن منطق الفلاسفة ومذهبهم. بيد أن مداخلة لسان أعجمي ذي مضمون كفري لا تلبث أن تجر المثقف إلى تشرب روح تلك الثقافة الكافرة. إذ لا يمكن هنا أيضا أن نفصل بين اللغة وما تحمله وتتضمنه من رسالة. فاللغة المادية الإلحادية «جزء ماهية» الكفر. وهنا تعترضنا مشكلة عويصة

لمستقبل الإسلام، وهي كيف نتعلم لغات العلوم ونحذقها دون أن تُعديَنا فلسفة تلك اللغات وكفرها.

إن هذه الذريعة الخطيرة المفتوحة في جنب الأمة تدخل إلينا منها رياح الفلسفة المادية، ذريعة وثغرة اللغات الأعجمية، لفي حاجة إلى علاج سريع. والمشكلة ذات حدين: الضرورة الملحة لامتلاك تلك اللغات بصفتها حاملة العلوم والتكنولوجيا، وكيف يمكن أن تقيم حاجزا بين متعلم لغة ما وبين ما تتضمنه من عقائد وقيم؟ العلاج تربوي شامل، فما لم يتحصن المتعلم من داخله، ما لم يصلب عوده على الاستقامة، وما لم تكتمل شخصيته الإيمانية فتعريضه للاحتكاك بلغة أعجمية مخاطرة. أكتب هذا في سنة 1985 بتاريخ النصارى، سنة من سنوات استفحال الغزو الثقافي: في عقر كل بيت من بيوتنا معقل للتغريب والتعجيم، فيديو، آلات التقاط لرسائل الأقمار الصناعية اللاحنة بكل لحن.

كان تحرز أسلافنا رحمهم الله من العجمة شديدا، فلذلك كان علماؤهم يخالطون عرب البادية يخشون من خلطة أنباط المدن وأعاجمهم. فكان أئمة اللغة حجة يرجع إليها الفقهاء والمجتهدون. والإمام الشافعي رحمه الله نفسه قضى زمانا في البادية ليتعلم اللغة العربية البريئة من كل عجمة.

أخرج البيهقي في الشعب عن الأصمعي قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء يناظره في وجوب عذاب الفاسق. فقال له: يا أبا عمرو! آللّه يخلف وعده؟ فقال: لن يخلف الله وعده. فقال

عمرو: فقد قال: وذكر عمرو آية فيها وعيده. فقال أبو عبيد: من العجمة أتيت! الوعد غير الإيعاد، ثم أنشد:

وإني إذا أوعدتـــه أو وعدتـــه لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

أرأيت كيف كانت لفظتان قريبتا المبنى متناقضتا المعنى، الوعد والوعيد، تختلطان في ذهن غير خبير بفصاحة العربية، فأدى ذلك لفهم مخالف. وإن كثيرا من الخلافات المذهبية في العقائد والفقه إنما مرجعه للتفاوت في فهم اللغة كما قال الشافعي رحمه الله.

وعلى الكفاءة في فهم اللغة تتفاوت مراتب الباحثين في الشريعة. قال الإمام الشاطبي رحمه الله: «إذا فرضنا مبتدئا في فهم العربية، فهو مبتدئ في فهم الشريعة، أو متوسطا فهو متوسط في فهم الشريعة، والمتوسط لم يبلغ درجة النهاية. فإذا انتهى إلى الغاية في العربية كان كذلك في الشريعة، فكان فهمه فيها حجة كما كان فهم الصحابة وغيرهم من الفصحاء الذين فهموا القرآن حجة. فمن لم يبلغ شأوه فقد نقصه من فهم الشريعة بمقدار التقصير عنه. وكل من قصر فهمه لم يكن حجة ولا كان قوله مقبولا»[1].

(1) «تاريخ المذاهب الفقهية»، جزء 2، ص: 111.

إعجاز القرآن

فَهْم الصحابة رضي الله عنهم معيار للفهم، وحجة للفقيه. ذلك أن سليقتهم العربية، ثم التربية النبوية والتعليم، وما وقر بتلك التربية في القلوب من إيمان، قربت إليهم المأخذ. ثم كان من بعدهم من علمائنا من لم يحظوا بتلك التربية، ولا هم أهل سليقة، فكان لا بد لهم من التبحر في اللغة ليعرفوا فضل القرآن، وليفتح لهم باب عقلي للفهم فيه ينيره الإيمان والتقوى. قال ابن قتيبة رحمه الله في كتاب تأويل مشكل القرآن: «إنما يعرف فضل القرآن، من كثر نظره، واتسع علمه، وفهِم مذاهب العرب، وافتنانها في الأساليب، وما خص الله به لغتها دون جميع اللغات. فإنه ليس في جميع الأمم أمة أوتيت من العارضة والبيان واتساع المجال ما أوتيته العرب خصيصا من الله لما أرهصه (أي لما سبق في علمه سبحانه) في الرسول ﷺ وأراده من إقامة الدليل على نبوته والكتاب، فجعله علمه كما جعل علم كل نبي من المرسلين من أشبه الأمور لما في زمانه المنبعث فيه»[1].

أمة العرب أوتيت العارضة وحاسة البيان وذوق البلاغة، لهذا جاءتها المعجزة من هذا القبيل. وهي معجزة خالدة، فعسى الله أن يفتح قلوب العرب المحدثين للاستماع لرسالة الله كما فتح قلوب الأولين. أم ترى فسد ذلك الحس، وانطفأت تلك العارضة،

(1) نقلا عن السيوطي رحمه الله في كتابه: «صور المنطق والكلام عن فني المنطق والكلام»، ص: 23، دار الكتب العلمية، بلا تاريخ.

واختلط ذلك الذوق الذي كان رائقا في الجدود؟ ترى إلى أي حد تحول العجمة القلبية عن سماع القرآن السماع الكلي المطلوب ولو تهاتفت الألسن بالعروبة؟

أذعنت العرب لبلاغة القرآن، فما وسع عظماء قريش إلا أن يعترفوا بما لم يكن في وسعهم إلا الاعتراف به، إذ قال قائلهم لما سمع من النبي ﷺ: «والله ما منكم أعرف بالشعر مني، ولا أعرف برجز الشعر وقصيده مني! والله ما يشبه الذي يقوله شيئا من هذا! والله إن لقوله لحلاوة! وإن عليه لطلاوة! وإنه لمثمر أعلاه، مغدق أسفله! وإنه يعلو ولا يعلى عليه وإنه ليحطم ما تحته!».

لكن عنادهم وكفرهم منعاهم من بناء الإيمان على الإذعان. فقاوموا التنزيل وصاحب الرسالة بكل وسائل المقاومة. ومن أهمها منعهم العرب من الاستماع لدعوة الرسول ﷺ التي كان لبها وأسلوبها تلاوة الآيات البينات. وآذوا أبا بكر الصديق رضي الله عنه لما اتخذ في حوش بيته مجلسا يتلو فيه القرآن فيجتمع أبناء العرب ونساؤهم ليستمعوا التلاوة. وقد أخبر الله عز وجل عن ذلك حيث قال: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْآنِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾[1].

إن أولئك العتاة لم يكونوا يحسنون نفاق الشعارات، لم يكونوا يخفون نياتهم تحت عبارات «الحوار المفتوح» وتحت الإشادة بهذا «التراث العظيم». كان الخطاب الإلهي ناصعا في بيانه ولا يزال، كان قويا في وقعه على الفطرة ولا يزال. أولئك العتاة الأولون قاوموا

(1) سورة فصلت، الآية: 26.

وقعه المباشر بالحجز الساذج المباشر كما فعل قوم نوح من قبل حين غطوا آذانهم بالأصابع وغطوا وجوههم بالثياب فَعْلة مجتمع طفولي. قال نوح عليه السلام كما حكى الله عز وجل عنه: ﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَابِعَهُمْ فِيٓ آذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَاراً﴾[1].

وفي هذا العصر عتاة تدفعهم للإنكار نفس النية، ويدفعهم الاستكبار، لكنهم يصمون آذانهم وآذان الناس عن السماع والاستماع بوسائل متطورة هيأها المجتمع المتحضر. إنهم يجعلون بين الناس والقرآن حجابا كثيفا اسمه «التراث».

قرأت لمستغرب مستشرق، واحد من الأساتذة الأكاديميين المتخصصين في دراسة «التراث» حين سألوه: «كيف تفهم الإسلام؟» فأجاب متعجبا بما معناه «كيف تريد مني أن أفهم الإسلام قبل أن أقرأ كل ما كتب عن الإسلام؟!» هذا وأمثاله ينصبون أمام أنفسهم حاجزا هائلا من إنتاج البشر يتقون به الحق، يحتجبون وراءه لكي لا يسمعوا كلام الله من حيث هو كلام الله. إنما القرآن عندهم نص من النصوص بحاجة إلى أن «يعيدوا قراءته» مستندين إلى المناهج اللسانية البنيوية التي تؤسس لهم فهما تشككيا عدميا يذيب النص المقروء في غيابات اللاأدرية المطلقة. هذا هو الأسلوب العصري من آخر طراز لذلك الموقف الكفري الخالد، موقف جعل الأصابع في الآذان، واستغشاء الثياب، والإصرار والاستكبار. لولا أن هؤلاء أصابعهم من صنع أنفسهم لا هذه الأصابع الحسية، وثيابهم ألوان

(1) سورة نوح، الآية: 7.

من «المعارف» والمناهج والفلسفات، وإصرارهم واستكبارهم معه المنصب الجامعي، والاطلاع الموسوعي والمؤلفات والحيثية المرموقة في الأوساط الاستشراقية.

عرب الجاهلية أذعنت منهم الفطرة القريبة لبلاغة القرآن وبقي القلب مطبوعا عليه، أما هؤلاء فسرابيلهم «المعرفية» وأكداس المفاهيم والمعطيات من مكتسبات العصر في مجالات «العلوم الإنسانية» غطت فيهم حتى بقايا الفطرة والعياذ بالله السميع العليم.

مناط الإعجاز

إن الله عز وجل تحدى المشركين أن يأتوا بعشر سور مثل سور القرآن. قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَٰتٍ﴾[1].

في آية أخرى تحداهم سبحانه أن يأتوا ولو بسورة واحدة حيث قال جلت عظمته: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾[2]. وكانت لبعض العرب مثل مسيلمة الكذاب محاولات سخيفة، وكان له قرآن زعم أنه حديث مثل حديث نبي قريش.

كان تحدي الخالق سبحانه لخلقه أن يأتوا بحديث مثل القرآن إبرازا للإعجاز في وسط قوم هم أهل الكهانة والسحر والشعر والقصص. فلو كان القرآن شيئا من هذا القبيل، ولو استطاع أن يكون هناك مثيل أكثر «مصداقية» من السخافات الصبيانية المضحكة إذن لثبت أن محمدا ﷺ شاعر كالشعراء أو كاهن كالكهان. قال الله عز وجل يخاطب نبيه: ﴿فَذَكِّرْ فَمَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلاَ مَجْنُونٍ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ قُلْ تَرَبَّصُواْ فَإِنِّي مَعَكُمْ مِّنَ ٱلْمُتَرَبِّصِينَ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلاَمُهُمْ بِهَٰذَآ أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ فَلْيَأْتُواْ بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُواْ صَادِقِينَ﴾[3].

(1) سورة هود، الآية: 13.

(2) سورة يونس، الآية: 38.

(3) سورة الطور، الآيات 29-34.

ولو كان محمد ﷺ شاعرا لانتهت رئاسته وسلطته المعنوية بانتهاء حياته: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾. وهذا بالضبط ما يعزمه ملاحدة العصر التطوريون الذين يرون في القرآن نصا تاريخيا صاحَبَ حركةً ثوريةً ورَسَم إيديولوجيتَها. وذلك في تقديرهم شأن مضى وفات، وعلى الطليعة التقدمية أن تجهز على مخلفات تلك الحقبة التي لا تحب أن تموت بعد موت محمد ﷺ. (الصلاة والسلام منا لذكر الحبيب. وبه وجب التنبيه).

كانت قريش، والعرب معها، لا تستطيع أن تضبط من أي ناحية يكتسب القرآن فعله المؤثر فيهم، فحاروا في تصنيفه مقارنة بإطارهم المرجعي: شاعر؟ ساحر؟ كاهن؟! قال أنس أخو أبي ذر الغفاري لأخيه، وكان أنس شاعرا: «لقيت رجلا بمكة على دينك –وكان أبو ذر متألها قبل إسلامه– يزعم أن الله أرسله: قال أبو ذر: «فما يقول الناس؟» قال: «يقولون شاعر، كاهن، ساحر»، قال: «سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم، وقد وضعته على أقوال الشعراء فلم يلتئم على لسان أحد أنه شعر. والله إنه لصادق، وإنهم لكاذبون».

روعة الأسلوب وجزالة اللفظ لعلها راعت كثيرا منهم. لكن تلك الروعة لا تكفي لتفسير الإعجاز القرآني. كما لا يكفي مناطا له وعلة ما فصله علماؤنا المسلمون حين ألفوا في الإعجاز القرآني وفصلوا أسبابه.

فهم يرجعون الإعجاز إلى أسباب أربعة:

1. جزالة اللفظ وبلاغة الأسلوب.

2. إخبار القرآن بأحوال القرون السابقة التي ما كان للعرب بها خبر.

3. إخبار القرآن بأحداث مستقبلية حدثت فعلا في عهد النبي ﷺ وبعده.

4. إخباره بعلوم كونية سابقة لاكتشاف البشر.

وقد يشيرون إلى التشريعات المعجزة السامية بكل مقياس.

بيد أننا نرى أن محاولة استكناه أسباب الإعجاز لن تنتهي إلى شيء يمكن أن نضع عليه أيدينا وكأن قد فرغنا من اكتشاف حقيقة القرآن. فالقرآن كلام الله عز وجل لفظا ومعنى ورسالة، وكل محاولة للتحليل والتركيب تؤدي إلى مزالق مثل التي سقط فيها العقلانيون المعتزلة في مقالاتهم في خلق القرآن. وقانا الله مواقع الزلل. القرآن كلام الله عز وجل تقمص لسانا بشريا. فإعجازه ذاتي، إعجازه من مصدره الإلهي، إعجازه من كون الفطرة البشرية عرفت فيه سطوة الألوهية وتعرفها، ما عدا من طبع الله على قلوبهم فأصمهم وأعمى أبصارهم. قال الله تعالى في حق المطبوع على قلوبهم من الكافرين: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُواْ مِنْ عِندِكَ قَالُواْ لِلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفاً أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهْوَآءَهُمْ﴾[1].

(1) سورة محمد، الآية: 16.

لغة القلب

هذه اللغة العربية التي حملت القرآن، وحملت السنة، وحملت علوم المسلمين، وحملت حضارة عظيمة، هل بوسعها أن تحمل لمستقبل الأمة حضارة اليوم والغد وما يكوّن هذه الحضارة من مضمون تقني علمي مادي؟ هل تبلغ هذه اللغة الشريفة اليوم وغدا رسالة تحرير الإنسان كما بلغت من قبل؟

ما دام القرآن بين ظهرانينا لم يرفع فرسالة التحرير محمولة، واقتحام العقبة سماع مطلوب، والاستجابة له منشودة. على السماع والاستجابة مدار هذا الكتاب.

إن هذه اللغة الشريفة المشرفة بحمل القرآن وصحبته اكتسبت روحانية وقدرة على غزو القلوب ووصف مشاعر الإيمان ونبضات الإحسان. تلك الروحانية وتلك القدرة لا نجدها، وأنى توجد، في أي لغة غيرها. كل لغة غيرها منقوصة الأعضاء مبتورتها عديمة الكفاءة عن التعبير في ميدان الرحمة. وأذكِّر أنني أقصد بالرحمة من الله عز وجل إلى العبد، أقصد تلك العلاقة الإيمانية الإحسانية. أما ميدان الحكمة فالعربية فيها، ككل اللغات، محتاجة إلى الاقتباس، قابلة للإثراء. أقصد بالحكمة اجتهاد العقل وإنجازه لمقتضيات الرحمة.

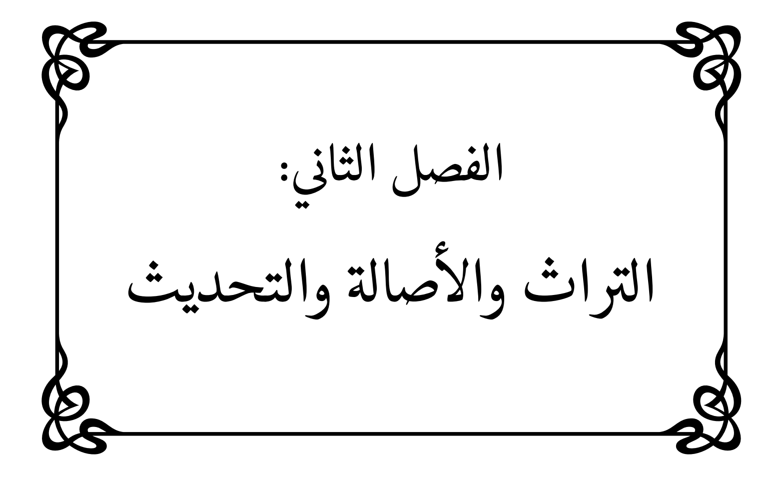
إن قدرتنا على اقتحام العقبة، والعقبة تحرير وعدل وسيادة، تتوقف على اكتساب لغتنا الشريفة المحتد سلطان الكفاءة العملية، سلطان السيطرة على المكاسب العلمية البشرية، سلطان الصلاحية

للاستقلال بتلك العلوم والسير بها قدما نحو القوة الحقيق بها من يستخلفهم الله عز وجل في الأرض.

ليس المشكل هو إسعاف المتعلم والمفكر بالعربية بالكلمات اللازمة، لكن المشكل أن نطور أداة للتعبير عن العصر دون أن نضيع بعيدا عن لغة القرآن، أن نسعف العقل بأداة إجرائية مع تقوية لغة القلب.

إن اللغة العربية ملك مشترك بيننا وبين القوميين العرب، ملك بين المليار مسلم وبين حفنة فاعلة نشيطة من المثقفين. هؤلاء يريدون أن يبدأوا بعلمنة العربية، بجعلها لغة عامة، وبعضهم يريدها عامية، تخاطب كل العقول، لا صلة لها بالدين. يريدونها لغة عقل متفتحة على العقلانية الكونية، مندمجة فيها. لا يرون لها مستقبلا ما لم تكتسب المرونة من تطليق المفاهيم الدينية الغيبية واعتناق الواقع الإجرائي المتطور.

نحن نريد عكس كل هذا، يريده كل مسلم يؤمن بالله واليوم الآخر وإن كان لسانه العادي أعجميا. فمن الأداة اللغوية، ومن المواجهة بين المطلبين المتناقضين، ترتسم أمامنا إشكالية الصراع بين ثقافات علمانية مادية وبين رسالة الإسلام، وتنفتح أمامنا آفاق ليس الإثراء الفعلي للغة فيها أهون من مقاومة تغريب لغتنا وعلمنتها وبترها.



الفصل الثاني:

التراث والأصالة والتحديث

صدمتان قاسيتان

تاريخ المسلمين حافل، ربما أكثر من تاريخ أي أمة، بالاصطدامات والحروب الداخلية والنكبات: ثورات داخلية، احتلال صليبي دام مائة عام، غزو التتار والمقاتل الهائلة، الانحسار من الأندلس... إلخ.

لكن صدمتان في تاريخنا كان لهما ولا يزال الأثر البالغ في نفوس المسلمين توارثته الأجيال، والأثر البالغ في وجهة المسلمين، إنهما أعظم التحديات في تاريخنا.

أما الصدمة الأولى فانكسار الوحدة بعد مقتل عثمان رضي الله عنه وما نتج عن تلك الفتنة المؤلمة من قتال بين الصحابة، وما تلا ذلك من تمزق الجماعة، إذ ظهرت الخوارج وتسلسلت إلى طوائف شغلت بحروبها المسلمين قرونا، وظهرت مطالبات آل البيت عليهم السلام وقوماتهم منذ قيام الإمام الحسين عليه السلام. ولم يكن مقتله الفاجع أقل وجوه تلك الفتنة قتامة، فتميزت الشيعة وتسلسلت مذاهبهم ومقاومتهم. كان أهم نتيجة لهذه الفتنة تحول نظام الحكم من خلافة على منهاج النبوة إلى ملك عاض. ولم يكن تاريخنا بعدئذ إلا معجزة عظيمة من معجزات التاريخ، نقول بلسان الإيمان: حفظا إلهيا وعناية، إذ استمرت الأمة في الوجود، واستمر الإسلام في انتشار، رغم هذه الشجة المردية في الرأس: ألا وهي فساد الحكم.

لكن هذه الصدمة على فداحتها واستفحال نتائجها على العصور إلى الآن ما لبثت أن استوعبها عقل المسلمين واستساغها وعيهم،

فعايش العلماء من أهل السنة والجماعة فساد الحكام باعتبار أن النبي ﷺ أخبر بوقوع التحول من الخلافة إلى الملك العاض، وسكتوا عن كثير مما كان ينبغي أن يقاوموه تهمما منهم وحفاظا على «بيضة الإسلام» وشوكته وقوته ووحدته أن تنكسر، مهما كانت هذه الشوكة وهذه الوحدة. وعايش الأئمة وشيعتهم نتائج تلك الفتنة في التقية والاستخفاء أو في الانتفاضات بحق كالزيدية، وخاض الأدعياء في الماء العكر مثل المختار الثقفي ودولة الباطل العبيدية.

تلك الفتنة كانت أم الفتن لتبكيرها وهولها. أما الصدمة الثانية التي غطت على الأولى وأيقظت ذكرها في نفس الوقت فهي الاستعمار الغربي، واحتلال الكفار أراضي المسلمين، ذلك الاحتلال الذي بدأ في الجزائر والهند منذ نحو مائة وخمسين سنة وبلغ مداه وأوج فلكه مع قيام دولة اليهود في فلسطين.

التفوق الهائل

اكتشفت بعض بلاد المسلمين قوة الغرب وبأسه قبل عهد الاستعمار، تلقت مصر المملوكية «زيارة» نابليون التي لم تدم إلا ثلاث سنوات كما يتلقى الحلم المزعج. لكن انسحاب الغزاة السريع لم يتح الوقت والفرصة ليدرك المسلمون البون المثير بين أعدائهم وبين حالتهم من الضعف العسكري والانحلال السياسي والاجتماعي، وخاصة العجز الفكري والتنظيمي والعلمي. ولعل قلة وعيهم بذلك مكنهم من المقاومة بما لديهم من وسائل هزيلة حتى رحل أصحاب البأس الشديد إلى شؤونهم الأوربية، يعلمون أوروبا الثورة البرجوازية التي صنعت القوة الهائلة التي انصبت بعدئذ على العالم بلاء كان أكثره إيلاما بلاء المسلمين.

قاوم المسلمون بعد نابليون هجمات الاستعمار بوسائلهم الذاتية الموروثة: بأسلحة فكرية إسلامية، وبحوافز إسلامية هي بقية الروح بعد خمول القرون. قام الإمام أحمد الشهيد يحارب الإنجيل في الهند، وقام الأمير عبد القادر ضد فرنسا سبعة عشر عاما في الجزائر، وقام المهدي السوداني يقاتل أعظم إمبراطورية في ذلك التاريخ، وقام السنوسية في ليبيا، ومحمد بن عبد الكريم الريفي في المغرب. هذا إلى هبات كثيرة متواصلة إسلامية شعبية استمرت بوجه من الوجوه حتى التحمت بحركات التحرير الوطني التي ما كانت لتحدث لولا استمرار الشعور الشعبي بكراهية الكفار. فكل من قاتل الاستعمار

من المسلمين القتال الفعلي المسلح ما قاتلهم لمجرد أنهم غزاة، بل قاتلهم أولا لأنهم كفار، وجاء الاعتبار الوطني في المقام الثاني.

وبدأ القتال السياسي على يد المثقفين من أبناء المسلمين. والتقى في هذا الميدان الواردون من المعاهد الدينية والواردون من المدارس المتأثرة بالغرب، مثل مدارس «التنظيمات» العثمانية أو الغربية قلبا وقالبا مثل مدارس التنصير ومدارس الاستعمار.

وشيئا فشيئا، وبتقابل الأفكار «المعهدية» الإسلامية والأفكار «المدرسية» ثم الجامعية، وبتأثير بعضها في بضع وتوالد بعضها من بعض، ومزايدة بعضها على بعض، ومحاربة بعضها لبعض، انمحى في وعي الكثير ممن حاربوا الاستعمار محاربة سياسية ذلك الفرق الجوهري الأول بين الإسلام والكفر، بين الحق المغزو والباطل الغازي. جاء جمال الدين الأفغاني رحمه الله من الهند وبوعي كان قد نشأ في الهند مشتركا بين الهندوس والمسلمين، وعي عماده فكرة الاستعمار القومي، لا فكرة طغيان الكفار على المسلمين. فلما تصدى مصطفى كمال لجيوش الحلفاء في الحرب العالمية الأولى واستطاع من موقف وطني أن يحتفظ لبلاده باستقلالها المتقلص المحلي، شاعت في أوساط المثقفين الفكرة القومية العلمانية وبدأ انطفاء الفكر الإصلاحي الذي قاده محمد عبده ورشيد رضا وأولئك الرجال رحمهم الله.

وقبل أن ينبعث الوعي الإسلامي والحركة الإسلامية على هامش الفكر القومي والوعي الوطني على يد أمثال الشاب العبقري حسن البنا والمودودي وسائر رواد الحركة الإسلامية المعاصرة، ثم بعد

هؤلاء وإلى الآن، سادت النظرة الواقعية المقارنة بين الذات المتخلفة والغرب المتقدم، بين قوته وضعفنا، بين نمائه وفقرنا، بين صناعته وحرفتنا البدائية، بين علومه وأميتنا، بين عقلانيته وخرافية عقلنا.

حقائق قاسية لا مناص من الاعتراف بها. وتبارى المثقفون من أبناء المسلمين منذ الحركة الإصلاحية في تفسير الأسباب التي أدت إلى هذا التباين الهائل بيننا وبينهم. فكان الفكر الإسلامي ولا يزال يفسر التخلف والهزيمة بالابتعاد عن الإسلام، بينما الفكر القومي والعلماني يعزوان ذلك إلى أسباب ليس تعلقنا بالإسلام أقلها سلبية في نظرهم.

الإسلام سبب تخلفنا، والقومية العلمانية سفينة النجاة، هذا شعار فضفاض لف في أدرانه ويلف كل الدعوات المستلبة، دعوات المستغربين، يؤمهم نصارى العرب.

البعد عن الإسلام سبب هواننا، هذا شعار الإسلاميين. وقد أصبح الإسلام، لغربة الإسلام بين أهله، في حاجة إلى إعادة عرض الإسلام من أسسه. لغربة الإسلام ولضرورة التجديد على كل حال.

التراث المجيد

لكن المسلمين خاصة العرب حتى النصارى منهم، رجعوا بعد الانذهال الأول عن الذات، وبعد الانسياح هياما وإعجابا بالغرب وحضارته، إلى البحث عن الذات والأصل، جريا مع موجة التأصيل التي عمت العالم المستعمر بعد الحصول على الاستقلال. رجعة إلى الجذور القومية والثقافية، وتشبث بها لتوازن تيار التحديث المهدد باقتلاع المجتمعات التابعة للحضارة السائدة.

كان أبو هريرة رضي الله عنه يعلن مرة في الأسواق أن ميراث محمد ﷺ يوزع في المسجد. فلما ذهب الناس للمسجد لم يجدوا إلا قراء يتلون القرآن. فقال أبو هريرة: «هذا هو ميراث محمد ﷺ». القرآن ميراث المسلم، وهو حقيقة إسلامه وشريعة حياته، وروح سلوكه وسلوك الأمة في كل الميادين. أما التراث في عرف التراثيين والمؤصلين فهو «شيء» خارج عنا، شيء نملكه ونعتز به، لكنه شيء لا وظيفة له إلا ملء هذا الفراغ النفسي الذي يشعر به المثقفون عندما تعرض البضاعات الحضارية، فيجدون أن ليس في أيديهم ما عند الآخرين من تقدم وعلوم وصناعات وتفوق عسكري واقتصادي وفني. فلا بد إذن من «بضاعة» حضارية نثبت بها شرفنا وتفوقنا الماضي.

وقد وجد المثقفون من أبناء المسلمين أرضية مشتركة يجتمع في ناديها، ويتفاهم ولو اختلفت الأسباب والنيات، كل من القومي

والعلماني والإسلامي. الكل يفخر بهذا التراث ويحب أن ينمي المعرفة به. وما يقدمه هذا التراث المجيد من عزاء للنفوس كان ولا يزال حاجة لتضميد الجراح التاريخية ولتخدير الحس التاريخي كلما ذكرتنا الهزائم الممضة، و«النكبات» و«النكسات». بأننا في واد سحيق.

الحكام القوميون والوراثيون يستعملون هذا المخدر بإسراف، يقدمونه جرعات ملونة للشعوب، مسكرة بأدوات الفن وحيله. وهاك الأفلام والمسلسلات! يا ليت كانت حياة الصحابة مثالا يعطى للخلق المتين، والدين والشجاعة، والفروسية التي ينبغي أن تتحلى بها الأجيال! يا ليت كانت النظرة إلى الماضي المجيد استجماعا لقوى الحاضر لنخطو خطوات على العقبة! لنتحرر من الاستبداد، لنطعم في هذه الأيام ذات المسغبة، لنكون أمة تقاتل. لكن التراث الشيئي هو نفسه أداة من أدوات الاستبداد، من أهمها، لأنه لا يوقظنا إلى فظاعة التفاوت في الأرزاق، لأنه يفتِّننا في زوايا التفرج والتسلية. ويتعالى الشعار المخدر: أمجاد يا عرب أمجاد! ليتلوه بعد انتهاء الحلقة توتر مَرَضي نحو الانحطاط في حلقة تالية.

إطراء الذات

لم يكن التاريخ المجيد الذي اكتشفه المثقفون المسلمون من جديد بلْسَمًا للعزاء فقط، بل كان مصدر افتخار وبارقة أمل. بما أن الأجداد كونوا أمة ناهضة فاتحة غالبة صانعة حضارة بعد أن لم يكونوا إلا قبائل «متخلفة» متقاتلة في أصقاع جزيرة العرب، فما المانع أن نعيد نحن الأبناء تلك التجربة ونستعيد تلك الأمجاد؟

وعلى تباين وجهات النظر في تحليل أسباب تلك «النهضة» الأولى وأسباب «الانحطاط» الحالي انبرى المثقفون المسلمون يحيون تلك الذكريات. وكان ولوع المستشرقين بتراث الشعوب وتشجيع الدول الاستعمارية لدراسته بقصد معرفة العقليات من خلال تراثها قد كدس إنتاجا جديدا في مناهجه على ما ألفه المسلمون. ومن ضمن هذا «الإنتاج» دراسات منصفة عرضت تاريخ الحضارة الإسلامية بلا تحيز، ويذكر اسم كوستاف لُبون الفرنسي في مقدمة الكُتَّاب الذين استقبلت ترجمة كتبهم بترحيب شديد. فأما الإصلاحيون الإسلاميون فرحبوا بهذا التأييد غير المنتظر من جانب العدو ليركزوا على الشعار الإسلامي: «لا يصلح أمر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها». وأما القوميون العلمانيون، ونادرا ما تفترق القومية عن العلمانية، فكان ترحيبهم لحاجة عاطفية بما أنهم من السلالة العربية المسلمة ينالهم من ذلك المجد رشاش، ولحاجة إيديولوجية لأن الذات السياسية والكيان

الحضاري الذي يدافعون عنه في وجه الاستعمار ها قد أثبت له التاريخ وجودا وكرامة تاريخية.

وفي كلا المعسكرين كان إطراء الذات التاريخية نوعا من الانتصار على المستعمر المتفوق حاضرا تفوقا باهظا. وكان من لازم العملية أن نبحث عن مطاعن في تاريخ الآخرين وحاضرهم. ولم يكن العلمانيون أنفسهم آخر من يعير الغرب بفقره الروحي وفساده الأخلاقي ومادية قيمه. وهنا أيضا تلقى المثقفون المسلمون الفكر الغربي المتحرر الناقد لتلك الحضارة الآئلة للسقوط فتبنوها.

وما لبث أن تميز تاريخ المسلمين الإصلاحيين في أعينهم تميزا ما، فبرزت الفترة النبوية الخلافية على أنها النموذج الخالد في كتابات السلفيين من أمثال الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب رحمهما الله. يوازي اقتراب هذا الفكر الإسلامي من الينابيع ابتعاد العلمانيين القوميين، كثير منهم، عن إسلامية المسلمين ليتعلقوا فقط بالقومية والإنجازات الحضارية والامتداد غير المتميز من جاهلية ما قبل الإسلام.

ثم ازداد تعلق الإسلاميين بنموذجية العهد النبوي، وانتقل العلم بتلك النموذجية إلى العمل على التحزب لله عز وجل والتربية والجهاد على مثالها على يد رواد الحركة الإسلامية، منذ حسن البنا ومعاصريه. وازداد بُعد العلمانيين عن إسلامية الأمة إلا باعتبار الإسلام مفخرة من مفاخر العروبة، مضى وفات الإسلام، وتبقى العروبة خالدة. وهكذا تأصلت الحركتان المعاصرتان المسيطرتان في بلاد المسلمين: هؤلاء تأصلوا في البعثة النبوية وفي القرآن وفي

شريعة سماوية وعهد نموذجي، وأولئك في العرق، وخاصة في اللغة والثقافة.

كلما توغل المثقفون العلمانيون في «تراث الآخرين» وتشربوا فلسفتهم ومناهجهم، وداخلوا نمط معاشهم حتى تمكنوا في عشرتهم، تقمصوا الخصوصية القومية لتعطيهم أصالة واسما وحيثية وجودية وتاريخا. لكن اللب غربي محض نفسا وعقلا وأهدافا. وكلما تمكن الإسلاميون في التحزب لله عز وجل عملا، وفي الإخلاص له نية، وفي التمسك بكتابه هاديا وبسنة رسوله ﷺ منهاجا، اكتشفوا عمليا وعاشوا قلبيا مصدر تلك الطاقة الإيمانية الأولى. اكتشفوا الذات الإسلامية.

الإسلاميون يعيشون إسلامهم، والآخرون ينشطون في طبع «التراث» ونشر التراث وتحليل التراث واستفهام التراث. ازداد نشاطهم في هذه الميادين بعد أن أضاعوا الفرصة، وفشلوا في قيادة الأمة. وبذلك يلحق نشاطهم في «إحياء» التراث من المكتسبات نشاط المستشرقين الذين أسدوا إليهم خدمات جلى.

التراث الحي

لا بد للإسلاميين أن يشغلوا ميادين البحث في التراث اليوم للتمكن من المادة، وفي غد الدولة الإسلامية ليقفوا هذه الثرثرة الأكاديمية المحمومة حول البحث، وبحث البحث، والحذلقة في الجزئيات التافهة يحسبون ذلك هو العلم. إذا كان الغرب يفعل ذلك فله وسائله، وهو حر في ممارسة ترفه الفكري. أما جهودنا فينبغي أن تنصرف أولا إلى البحث العلمي في كليات الدين، وإلى الاجتهاد في وضع الإطار القانوني الإسلامي لحاضر ولغد يعجان بالغرائب، وينبغي أن ينصرف لاكتساب العلوم التجريبية وتوطين التكنولوجيا والاستقلال بها.

وجد الآخرون منهجيات تبسيطية جاهزة، تتلمذوا فيها للغرب الرأسمالي أو للشرق الشيوعي، فهي عندهم مادية محضة هنا وهناك، والسوق عامرة. أما نحن الإسلاميين فلا نزال في الأطوار الأولى التأسيسية، وتنقصنا الممارسة السياسية والتجربة الميدانية لكي نطرح الأسئلة الكفيلة بعرض الواقع السياسي والاجتماعي والاقتصادي لبلاد الإسلام وللعالم، للحاضر وللمستقبل، على معاييرنا التي لا تنكر الماديات والجسمانية، ولا أسبقية الماديات والجسمانية في الوجود وفي سلم الضروريات، لكن تبنى على الضرورة الجسمية المادية الحياة الغائية، حياة الإيمان بالله عز وجل وباليوم الآخر. وحياة الإيمان هي سر بقاء هذه الأمة وزاد انبعاثها.

بدأ في الساحة اتجاه جديد: القوميون العلمانيون أخذوا يغمسون أقلامهم في محابر إسلامية الشعار، لكن المداد هو نفس المداد. في طليعة هؤلاء منافقون حاذقون تخرجوا ويتخرجون من مدرسة «الواقعية التراثية» هكذا أسميها. فظنوا بعد فشل الإيديولوجيات في بلادنا أن المستند الشعبي الذي يفتقرون إليه في متناول اليد، ما بينهم وبين «التراث الحي» في قلوب الأمة إلا أن يعرفوا كيف يتقربون إليه ويبلورونه ويقودونه حيث يوهمونه أنه مطلب الإسلام.

علي شريعتي إمام هذا الاتجاه، وقد كان لفكره ومحاضراته وتأليبه الأثر البالغ في تقريب الشباب الإيراني المثقف من الشعارات الإسلامية. وسبحان الله كيف تأيدت الثورة الإسلامية في إيران بمثل هذا الإنسان! وإن له بين ظهرانينا في بلاد العرب لتلامذة، وإن الاتجاه فيما يبدو، والله أعلم، هو تسابق كل المدارس والأحزاب الفاشلة إلى الشعارات الإسلامية. سبقت إلى ذلك في إيران تنظيمات يسارية مثل «مجاهدي خلق». وتسابق الأحزاب من كل الاتجاهات إلى نشر المقالات الإسلامية في صحفها، بل إلى تخصيص جرائد حزبية «إسلامية» الهدف هو المبادرة إلى كسب تعاطف الأمة، وجني ثمار الحركة الإسلامية.

علي شريعتي المثقف التراثي يرى أن مقاومة الدين في المجتمعات الشرقية أتى بعكس النتائج التي ترتبت على علمنة المجتمعات الغربية. ويرى أن مقاومة الدين في بلاد المسلمين أدت إلى تحطيم السد الذي كان يقف حائلا في وجه النفوذ الإمبريالي

ونفوذ الاستعمار الاقتصادي ونفوذ فلسفة الاستهلاك وغلبتها والانحطاط الفكري والانحراف[1].

من مزايا هذه المدرسة الشريعتية أنها تخاطب، من فوق رؤوس الجماهير المسلمة موضوع الرهان التي لا تفهم لغة المثقفين، زبناءها بكل صراحة. اقرأ مثلا كتاب التراث والتجديد للدكتور حسن حنفي، وهو حامل لواء هذه المدرسة، تقرأ العجب العجاب: الكفر المتبرج، والخلط الإيديولوجي، والاطلاع الموسوعي في خدمة كل ذلك.

يقول شريعتي: «في القضايا العلمية والفلسفية ينبغي علينا أن نبحث عما إذا كانت القضية صحيحة أو باطلة. أما في القضايا الاجتماعية فينبغي علينا أن نبحث عن عامل آخر نسيناه جميعا، ومن هنا كانت آراؤنا خاطئة وخبط عشواء. في القضايا الاجتماعية هناك أمر آخر غير الصحة والبطلان، ينبغي أن نبحث عنه، وهو: متى نطرح القضية وأين ولماذا؟»[2].

يرى الكاتب المنافق أن الأمة الإسلامية لمّا تنضج تاريخيا، لما تصلْ إلى طور تستطيع معه تقبل «الحقائق الصادقة» القائلة: إن الدين هراء تسلت به البشرية في طفولتها. لا حق ولا باطل، لكن واقعية وانتهازية.

---

(1) اليسار الإسلامي، 1، ص: 62، ربيع الأول 1401، نشر ذ. حسن حنفي، القاهرة.

(2) نفس المصدر والصفحة.

القانون التراثي الواقعي

ومن أمهات فكر شريعتي وسربه، وهي نغمة سيرددها ببغاوات، أن لكل مقام مقالا، وأن لكل طور تاريخي ولكل خصوصية ظرفية، إيديولوجية تناسبهما، والدين والتراث أمور تشغل بال الأمة، وتكون «المخزون النفسي» للجماهير على حد تعبير حسن حنفي، فما علينا إلا أن نخضع لقانون هذه الخصوصيات.

وقد صاغ علي شريعتي هذا القانون الذي ينبغي أن نستمع إليه بانتباه لأنه مدخلنا في المستقبل لفهم التطورات المتسارعة منذ الآن في مواقف التراثيين على الساحتين الفكرية والسياسية. قال: «وهناك قانون فحواه: إننا في ظل ظروف اجتماعية معينة تستدعي كلاما خاصا، وتتبنى أهدافا معينة وطرح قضايا معينة. إذا وجهنا الأذهان وشغلناها بأمور أخرى نكون قد ارتكبنا الخيانة مهما كان ما يطرح من قبيل الحقائق العلمية أو الدينية أو الفلسفية، ولو كان بين أيدينا من الأدلة لإثبات صحتها ألف دليل»[1].

نقرأ معه هذا القانون الذي يؤسس مدرسة النفاق «العلمي» وأرجو أن لا يتألم أحد من نعتنا لأهل النفاق والكفر بالنعوت التي يطلقها الشرع على أهل النفاق والكفر. فنحن نصف المواقف بالموضوعية، ونرتكب نحن أيضا الخيانة إن أطلقنا عليهم مجاملة

(1) اليسار الإسلامي، م س، ص: 63.

أي نعت آخر، خاصة وهم يشهدون على أنفسهم بالكفر والنفاق ولا يستترون.

استعمل المترجم من الفارسية إلى العربية كلمة «فحوى» ولهذا أدلته، فالفحوى عند الأصوليين الدلالة الظاهرة للكلام، ومن ورائها «المفهوم» وهو المعنى الآخر الغائب لفظا، المفهوم معنى، إما موافقة أو مخالفة. كأنه يقول لزبنائه: «اقرأوا جيدا ما بين السطور». ودلالة أخرى هي أن المترجم تراثي كالمترجم عنه، كلاهما يتحكك بالألفاظ الفقهية. ولا حاجة لقراءة ما بين السطور، فالقانون واضح. كأنه يقول: «مهما كانت الحقائق التي نؤمن بها ومعنا لإثباتها ألف دليل، فحذار أن تظهرها أو تستعملها، بل تستعمل الشعارات التي تروج سياسيا وتتبنى الأهداف الرائجة عند الشعب. إيماننا بأن الدين إيديولوجية مرحلية، وأن العقلانية اللبرالية أو الماركسية هي الحق، وأن الاشتراكية هي العلم وهي المستقبل، كل هذا نكتمه حتى تتمكن أقدامنا في الساحات الشعبية. ولن يكون لنا هذا أبدا إن لم نحرك «المخزون النفسي» للجماهير برفع شعارات الإسلام».

هذا هو الأفق الذي بقي مفتوحا أمام التراثيين: أن يوظفوا الإسلامولوجيا أداة مداهنة ليحصلوا على ثقة الجماهير المعبودة الغالية. هذا الموقف بديل إيجابي للمنادب والنواح العاجز الذي يسود أوساط المستغربين أسفا على انقطاعهم وغربتهم عن الجماهير التي ترفض كل ما عدا الإسلام. فعلي شريعتي ومدرسته طليعة متقدمة في هذا الميدان.

القومية والدين

استعمال الدين استعمالا إيديولوجيا خداع لم يكتشفه المقنن التراثي، إنما قلد فيه جهابذة الاستعمار. والرجل قومي علماني له أهداف قومية علمانية، لم يكن بوسعه وقد مات قبل الثورة أن ينظر قانون محاربة الإسلام بالقومية كما يفعل حزب البعث العراقي منذ أربع سنوات ونصف[1]. فلجأ إلى اللعب على الحبلين ليخدم أهدافه القومية بشعارات إسلامية كما خدم الاستعمار أهدافه بإثارة الشعور العرقي طورا والشعور الديني طورا آخر. وقد أورد التلميذ النجيب مصدر اجتهاده ليوثق قانونه ويعطيه المصداقية. كتب قائلا: «يقول جونيه لابون، وهو أحد كبار مفكري فرنسا في شمال إفريقيا: «ينبغي أن تقسم منطقة شمال إفريقيا...» لكن كيف؟ يقول: «اكتشفت أن نصف سكان شمال إفريقيا -من الناحية التاريخية- من البربر، والنصف الآخر من أصل عربي. وليس بالأمر المحسوس أيهم من أصل عربي وأيهم من أصل بربري. ثم قمت بأبحاثي واستنتجت أن الطائفة التي أغلبها من البربر ذات إحساسات قومية أكثر حدة. أما الطائفة العربية فإحساساتها الدينية أكثر غلبة. ومن هنا رأيت أنه ينبغي أن تطرح القضايا القومية والعلمية المعاصرة بين أبناء الطائفة الثانية حتى تزلزل قاعدتهم الدينية، كما ينبغي أن ينتشر الدين بين أبناء الطائفة الأولى بحيث يتم انفصالهم عن أبناء الطائفة الثانية بعد

(1) كتبت هذا بعد بداية الحرب العراقية الإيرانية بأربع سنوات ونصف.

أن ذابوا فيهم الآن في وحدة إسلامية. وبأية وسيلة؟ بوسيلة طرح قضية القومية».

قلت: لم ينشر الاستعمار الفرنسي الدين بين البربر، إنما قوى الشعور القومي، ونشر الأعراف الجاهلية فيما يسمى بالقضية البربرية.

ويشرح المعلم الشريعتي المذهب قائلا: «نرى أننا حين تجرد القومية تماما من وضع اجتماعي خاص أو زمن تاريخي، فإنها تكون مدرسة فكرية تقدمية كما وصفت في الكتب، وتكون طبيعية. لكننا في هذه الظروف نرى أن نفس هذه المدرسة الفكرية الصحيحة الصادقة التي استند عليها كل هؤلاء العلماء الأوربيون، وأنتجوا كل هذه الآداب العظيمة على أساسها، وعلى نمط تفكيرها، وأن هذه المدرسة التي أزالت ظل الحكومة البابوية عن أوروبا، ومنحت أوروبا الخلاص، صارت بالنسبة لوحدة المشرق سببا في الانقسام والفرقة والعناء».

لا يحتاج إدراك مرمى الرجل إلى كبير عناء، فهو لا يخفي إعجابه وإيمانه الشديدين بالفكر القومي الذي يعتبره حقيقة الحقائق. وسيظهر لنا مرماه واضحا جليا فيما يلي من كلامه. ولا تغرنا غيرته المعلنة على الإمبراطورية العثمانية، فمن وراء فحوى كلامه تقرأ التطورية الظرفية الماركسية، كأنه يقول: ما دمنا لا نستطيع طي المراحل التاريخية، وما دمنا لا نستطيع تجاوز خصوصيتنا، فنسالم الدين بل لنستعمله قوة بها نتحرر أولا.

قال بعد الذي سبق: «نفس هذه المدرسة الفكرية بمجرد أن تظهر في أوروبا في القرن السابع عشر تصير أعظم عوامل الرقي والحضارة (يقصد دائما مدرسة القومية) وحين يطرحها مفكرنا في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين نرى فجأة إلى أية نتيجة يؤدي انتصارها. فإذا بقوة الإمبراطورية العثمانية التي كانت قد حاصرت النمسا وطوت كل أوروبا الشرقية تحت لوائها، وشرعت في إلقاء أوروبا الوسطى والغربية في المانش، نجد نفس هذه القومية، وهي مدرسة فكرية إنسانية وتقدمية، وأنا شخصيا أؤمن بها إيمانا راسخا، نجدها حين طرحت في ذلك العصر، وفي ظل تلك الظروف، وحين واصل مفكرونا -وكلهم كانوا تحت تأثير مفكري أوروبا تقدميين وقوميين- نفس هذه الحركة نجدها قد صارت بعد عشرين سنة، أي أقل من ربع قرن، سببا في أن تتحلل تلك القوى العظيمة للإمبراطورية العثمانية ذات القوة الإسلامية الشرقية التي كانت تخنق أوروبا، فإذا بها تتحلل من الداخل، ثم تتمزق إربا، وتصير كل إربة لقمة لها مذاق الملبنى في فم الغرب».

هذا على الأقل يسرد التاريخ بلا تحيز ويعترف بفضل الإسلام في انتصار الدولة العثمانية وتماسكها. ولعل عجمته، وهو الإيراني، جنبته التعصب للقوميين العرب ضد الشطر المهم من تراث الإسلام، تعصب قوامه لديهم الوقوف مع العروبة وإسلامها لا غير. وهو أوسع منهم تراثية إذ يعتبر من أمجاده كل أمجاد المسلمين عربا وعجما. ترى أذلك فحسب لأنه عجمي؟ اسمعه ينتقد المغربين ويشير إلى محدودية الفكر المستورد وعدم صلاحيته لبلادنا،

وتساءل معي عن كنه التمزق الذي يحس به، وهو المؤمن الراسخ الإيمان بالقومية ومدرستها، أمام فشل القومية في البلاد الإسلامية.

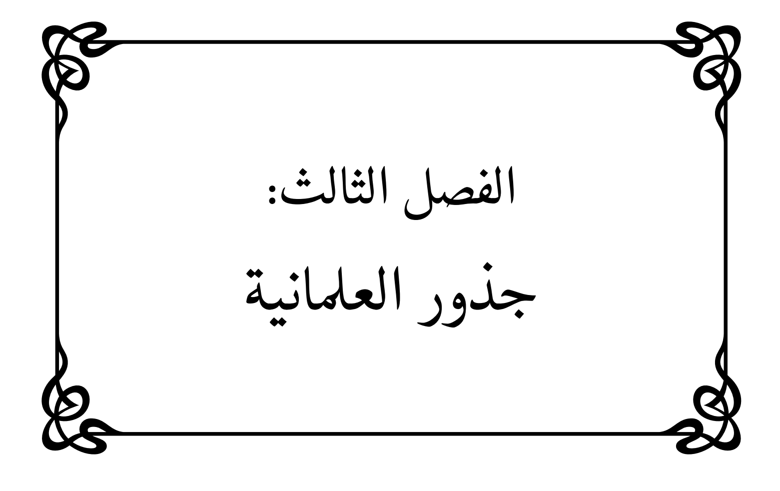
قال: «ما أريد أن أخلص إليه هو: نحن المفكرين الذين نفكر مثل مفكري أوروبا تماما، ونتسم بنفس سماتهم نختلف عنهم، فهم قد دققوا أخذ حقائق عصرهم وتاريخهم ومجتمعهم واحتياجاته، واتسموا على هذا الأساس وتحركوا وعملوا على هذا الأساس.

أما نحن فدون سند من العصر، ودون سند من مجتمعاتنا، ودون سند من ثقافتنا، ودون معرفة بالظروف الاجتماعية والعصر التاريخي، وأوضاع شعوبنا وأحوالهم، أخذنا خصيصة واحدة من خصائصهم، واحدة فحسب، وعملنا بها، فأدت إلى نتيجة عكسية في كل مكان. وذلك لأن القضايا الاجتماعية والقضايا العينية محلية ليست كلية»[1].

هذا هو طرح الإشكالية العويصة التي تعرضت أمام المثقفين المسلمين الإصلاحيين، وأمام القوميين ومنهم مسلمون، وأمام العلمانيين وهم قلما يعلنون إلحادهم إن كانوا ملحدين، إلا أن يكونوا دجاجلة مكشوفين مثل مؤلف كتاب «التراث والتجديد». إشكالية عويصة هي إشكالية التراث والأصالة والتحديث، عرضت الأفكار، ووجهت الجهود، وغدت الخصومات البيزنطية بين المثقفين ولا تزال تغذى.

(1) اليسار الإسلامي، م س، ص: 64-63.

أما هذا فقد انتهى إلى الاعتراف المبرهن عليه تاريخيا بفشل القومية، لا ينكر ذلك الفشل الإيديولوجي والعسكري إلا مكابر. لا يكابر هو، لكنه لا يهتدي إلى علاج غير قانون الواقعية التراثية. وفحواها ومفهومها أن لكل مقام مقالا، ولكل طور تاريخي إيديولوجية تناسبه، وأن كل كلام لا يصح إلا في «جغرافية كلامية» حسب عبارته. شريعتي لا ينطلق من أن هناك حقا وباطلا كما صرح بذلك، بل هي ظروف اجتماعية، ومراحل تاريخية، وخصوصيات قومية لا بد أن نصانعها ونماشيها إلى أن تتاح الفرصة لتطبيق الحقائق العلمية التي نؤمن بها إيمانا راسخا.



الفصل الثالث:

جذور العلمانية

الفصام النكد

هكذا يعبر سيد قطب رحمه الله عن انفصال الدولة عن الدين في تاريخ المجتمع النصراني، هذا الفصام الذي تبناه بعض مثقفي ذراري المسلمين تبنيا تجاه الإسلام.

فصَم الشيء بمعنى قطعه بدون إبانة، أي بدون انفصال تام. وقصمه بالقاف إذا قطعه وأبان بعضه عن بعض. وقد وردت كلمة «نكد» في كتاب الله العزيز في قوله تعالى: ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إِلاَّ نَكِداً﴾[1]. قال الراغب الأصفهاني رحمه الله: «النكد كل شيء خرج إلى طالبه بتعسر. يقال رجل نكِد ونكَد (بفتح الكاف وكسرها) وناقة نكداء طفيفة الدر صعبة الحليب».

هذا نبت نكد أعسر ظهر بيننا ساقه وزهره وثمره، بعد أن أودعت بذوره وسقيت جذوره في عقول أبنائنا ونفوسهم بفلاحة الغزو الثقافي وسقي التعليم المنفصم. وترى أن أعداء الإسلام من بني جلدتنا لا يعترفون جهارا بالانقطاع والانقسام إلا في النادر. فهم يتمسحون بالإسلام، بأسلوب أو بآخر. فكلمة فصام أليفة، والنبت النكد فينا يتوالد، لا هو منا فنأنس إليه، ولا هو يعلن هويته الإلحادية مخافة البينونة عن الجماهير المعبودة. وحول هذه النقطة تدور جهود التلفيق الإيديولوجي وتدور الإشكالية العسيرة النكداء،

(1) سورة الأعراف، الآية: 58.

إشكالية الأصالة التي يريدونها قومية، وتراثية وكل ما تشاء إلا أن تكون إسلامية حقا وصدقا، ويتوقون إلى الحداثة فلا يرون لها سبيلا إلا العقلانية الملحدة منهجا والثورة على الدين لاجتثاثه من أصله طريقا. وقد بدأت هذه الناقة القليلة الخير تدر، بل تفرز، إيديولوجية تداهن الدين وتراوغه على رقعة «جغرافية الكلام» كما رأينا آنفا.

لابد لنا من إطلالة على تاريخ «الانفصام النكد» لنعرف الآليات الفكرية في سلاح الإلحاد، كيف نشأت وكيف تركبت وكيف حاربت النصرانية وتحاربها. وبذلك نعرف كيف تشتغل تلك الآليات في خلايا نبتنا الأعسر.

نشأت تلك الحرب على دين النصرانية لمقاومة الكنيسة ونظامها وكهنتها الذين استغلوا الدين المحرف لأهداف تعسفية منحرفة. هذه هي استراتيجية المواجهة بصفة عامة. ثم جاء الإلحاد المفلسف لينازع في أصل الدين ويحارب «أفيون الشعوب» من منطلق طبقي جدلي. نرجع إلى هذا إن شاء الله بعد أن نستعرض شيئا من التاريخ.

الفاسقون

إن الكلمة الحق في النصرانية والنصارى هي ما جاء عن الله عز وجل. قال عز من قائل: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا ٱلنُّبُوَّةَ وَٱلْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ ٱلإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ٱبتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ٱبْتِغَآءَ رِضْوَانِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾[1].

كانت بعثة سيدنا عيسى عليه السلام حلقة في سلسلة الوحي، وكانت رسالته تذكيرا لما تركه ونسيه الفاسقون من الأمة الموسوية من دين الله تعالى. ومن كل أمة كان مهتدون، وكان كثير من الفاسقين. وتكرر الآيات الكريمة ذكر الفسق وذكر الكثرة. وإخبار الله عز وجل عن كثرة الفاسقين من أتباع سيدنا عيسى عليه السلام تشمل تاريخ النصرانية بطوله، لا يقتصر الإخبار الإلهي على فترة ما قبل البعثة المحمدية. هذا الفسق الكثير هو كان سبب ثورة الفطرة الإنسانية على الكنيسة، وهو بالتالي كان سبب مولد الدعوة الإلحادية العلمانية التي تطورت في تلك البيئة، واستوردتها إلى أرضنا رياح الجاهلية التي لا تزال تعصف. فكيف كان ذلك؟

إن الله عز وجل شهد بما آتاه من رأفة ورحمة لأتباع كلمته ورسوله عيسى عليه السلام، وبيَّن تفريطهم في الرهبانية التي قصدوا

(1) سورة الحديد، الآيتان: 26 و27.

بها خيرا. كانت الدعوة العيساوية تجديدا لدين الله اصطدم بـ«الكنيسة اليهودية» التي عمرها الأحبار الفاسقون كفرا وتحريفا وظلما وقسوة. وكانت الأمة الإسرائيلية تحت وطأة الاستعمار الروماني يومئذ. فظهرت الرأفة والرحمة تكذيبا لقسوة الأحبار الأنجاس، وكان الانزواء عن المجتمع الوثني الروماني وعن ثقافته السائدة وما استلزمه الانكفاء على الذات من تراحم أخوي. وظهرت المقاومة السلبية في المجتمعات النصرانية قبل رفع عيسى عليه السلام وبعد رفعه، فكان القمع الوحشي من جانب السلطات الرومانية شاهدا على أن الأمة المؤمنة يومذاك كانت خلية تمرد على السلطة في جسم الإمبراطورية.

لا ندري متى ظهر شعار «اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله». فهو شعار تصالح مع الدولة، وإن كان النصارى ينسبونه للمسيح عليه السلام، دامت المجازر في صفوف المؤمنين برسالة السيد المسيح عليه السلام، رسالة الإسلام، ثلاثمائة سنة. مجازر فظيعة تدل على مدى حنق قيصر وغضبه أن يظهر في الأرض سلطان غير سلطانه. وقد وصف الله عز وجل لنا مقتلة فظيعة من تلك المجازر في سورة البروج حين رمي المؤمنون في لهب الأخدود. وقول الله عز وجل يبين سبب ذلك الاضطهاد: ﴿وَمَا نَقَمُواْ مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُواْ بِٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ٱلَّذِي لَهُ مُلْكُ ٱلسَّمَاوَاتِ وَٱلأَرْضِ﴾[1]. كان النصارى الأولون إذن شجى في حلق الدولة القيصرية، وكانت دينونتهم لله العزيز الحميد تثير حفيظة الدولة ونقمتها.

(1) سورة البروج، الآيتان: 8 و9.

أثناء هذه القرون الثلاثة عاش النصارى في السرية والتخفي، وعاشوا تحت السياط.

كل من عرف التحزب لله عز وجل ضد الدولة، وعرف ظروف الاضطهاد ولو في حدود لا تبلغ معشار التحريق في الأخاديد وعرض الأجسام العارية للسباع في مسارح روما ليتفرج الرعاع يتصور فرص التحريف والانحراف، ويتصور الأقلية المؤمنة المغلوبة وهي تعاني ذلك الاضطهاد الطويل. مجتمع مؤمن اكتنفه الإرهاب، وسلكه في أغلال الاستعباد منذ ميلاد جهاز وحشي. لا جرم أن يتعرض الدين السري المستضعف لكل أنواع التزييف. لا جرم أن يفسق عن الدين، قبل صلحه مع الدولة، طائفة تحت تأثير الجهل لقلة وسائل العلم والاتصال، وطائفة أخرى تصيد في الماء العكر. بدأ الفسق منذ ميلاد الدعوة.

وبالمقارنة، فالإسلام عز منذ نشأته، لم يعرف الاضطهاد إلا مدة ثلاث عشرة سنة، وكان اضطهادا في حدود لوجود العصبية القبلية التي حمت الرسول ﷺ وحمت كثيرا من الصحابة رضي الله عنهم. ثم إن الرسول الكريم ﷺ قاد الجهاد، وعلم الدين وربى الأمة، وأسس الدولة فما لحق بالرفيق الأعلى إلا والقرآن مكتوب محفوظ، والولاية بين المؤمنين هي الرباط في المجتمع، والشريعة الإسلامية هي القانون السائد، والدولة الإسلامية منتصرة، والقيادة الإسلامية ممكن انبثاقها في الأمة بالشورى، ومنهاج النبوة واضح سلكته الخلافة الراشدة.

هذه المقارنة بين ميلاد الدعوتين الكريمتين مهم جدا. وإذا كان الله عز وجل قد تأذن بحفظ القرآن الكريم وبصيانة هذا الدين ونصره، فإن مِن حِفظه تعالى أن هيأ أسباب الصيانة في فترة الميلاد حتى صلب عود الدين واكتمل الرجال الذين حملوا الدعوة بعد موت الرسول ﷺ.

فإن كان ظهر في هذه الأمة المحمدية فاسقون، وقد كان ولا حول ولا قوة إلا بالله، فإن فسقهم هذا لم يكن فسق تحريف لأصول الدين، وكل المحاولات في هذا الباب فشلت وما كان لها غير الفشل، لأن أصول الدين ثابتة. وجزى الله عنا رجال الحديث والفقهاء وسائر العلماء والأئمة الذين جاهدوا في الله حق جهاده.

ما كان من فسق في هذه الأمة فلا ترجع أصوله لفترة الميلاد، لكن إلى فترة لاحقة. لا شك كانت دعوات ضد الحكم الخلافي الراشد كدعوة الخوارج، ولا شك كانت دعوة التشيع ضد الملك العاض الأموي فما بعد. لكن المذهب الخارجي ليس تحريفا للدين، والمذهب الشيعي إن جادل في أصول الحكم فإنه لم يجادل –ما خلا الغلاة الفاسقين– في أصول الدين.

نرجع إلى كل هذا إن شاء الله. ونسجل هذه النقطة المهمة فيما يرجع لاختلاف ميلاد الدعوتين لنشير إلى أن الذين يخاصمون الإسلام من منطلق خصام غيرهم للنصرانية إنما يشهد تقليدهم الأعمى بجهلهم وزيف نياتهم.

الوصال الأنكد

من المعقول أن نعتبر السبب الأول الذي أدى إلى الفصام النكد آفة أنكد من الفصام نفسه، النبتة النكدة نمت على أرضية أنكد منها وألعن.

كان الوصال بين كهنة الدين وطواغيت القيصرية المستبدين أصل البلاء. تزوج فسق الفاسقين بطغيان المستكبرين فولدا النبتة العسرة الملعونة. وحيثما تم هذا الزواج الغاشم استغل الدين وحرف الكلم عن مواضعه، واشترى بآيات الله الثمن القليل. حدث هذا في بني إسرائيل بعد نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بغير حق. وحدث بكيفية أجلى وأوضح في مهاد النصرانية، وحدث في تاريخ المسلمين بشهادة سيد المرسلين ﷺ. شهادة حذرت من الفتنة قبل حلول أجلها. نرجع إن شاء الله لفتنة المسلمين بالوصال الأنكد في فصل «الفتنة» قريبا.

دامت سيادة اليهود بعد تأسيسها على يد سيدنا موسى عليه السلام قرابة السبعة قرون، تميز أثناءها في القرن العاشر قبل الميلاد خلافة نبي الله داود عليه السلام، والملك النبي المبارك الفذ نبي الله سليمان عليه السلام. وما زالت أنبياء الله قبل الخليفتين وبعدهما تبعث لتذكر بني إسرائيل بميثاق الله عز وجل. فكان النبي في وقته هاديا واقفا إلى جانب الملك يسدده ويأمره وينهاه، بل لا يكون الملك ملكا إلا برضى النبيين، وقد قص الله عز وجل علينا أحسن القصص كيف طلب بنو إسرائيل من نبيهم أن يبعث لهم ملكا، وكيف جاء الوحي

بتمليك طالوت، وكيف اعترض بنو إسرائيل، كعادتهم، على أمر الله عز وجل، ثم كيف تخاذلوا عن القتال في سبيل الله مع طالوت كما أمرهم الله تعالى، ثم كيف انسلوا لواذا إلا فئة قليلة من بينها داود الذي فاز برضى الله لما قتل جالوت فآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء والله ذو فضل على العالمين.

ليس معنا علم من الكتاب بما حدث بعد انشطار ملك بني إسرائيل إثر وفاة سليمان عليه السلام إلى مملكة يهوذا في الشمال ومملكة أورشليم (القدس) جنوبا. هل كان الله عز وجل يبعث نبيا واحدا أم نبيين. كان الوصال مباركا: نبي من أنبياء الله عز وجل وملك مقيد بالدعوة. لكن الأمة اليهودية الخائنة قتلت الأنبياء بغير حق وعصت أمر الله فاستحقت اللعنة من عند الله عز وجل، وتأذن الله تعالى بإخزائها إلى يوم القيامة، وهو فاعل ما وعد به سبحانه.

أسر بختنصر (نبو خودونصور الثاني) ملك الآشوريين بني إسرائيل من أورشليم سنة 587 قبل الميلاد، ثم بعد رجوعهم من الأسر ومكثهم في الأرض المقدسة 600 سنة أخرى ينجسونها طردهم الرومان. فمنذئذ تشتتوا في الأرض ليعيشوا أقليات محتقرة لسوء أفعالهم. فكانت القرون الخمسة والعشرون منذ الأسر الأول كلها دسائس وتآمرا وفسقا وتحريفا. هذه الظروف التاريخية تفسر للعقلاني ما وراء حركة التاريخ من إخزاء الله سبحانه وتعالى لطائفة حادّت الله وقتلت أنبياءه. خمسة وعشرون قرنا من التآمر على البشرية، ومن التحريف والفسق في أعشاش الكيد ومصارف الربا وبيع السحر والخرافة وحياة القذارة وأخلاق القردة والخنازير.

إلا أنها هنا مجرد حكاية لما وصف الله عز وجل به تلك الأمة الملعونة. ليس ما أكتبه تشفيا وانتقاما لهزائم العرب أمام الدولة الملعونة. كتاب الله حق دائم أبدي، ولعنة الله أمة القردة والخنازير آيات تتلى وعبادة. وابحث في ثقافات الأمم هل تجد تعاليم أشأم وألأم من تعاليم «فقهاء اليهود في التلمود»[1].

أما الدعوة النصرانية فإنها عاشت ثلاثمائة سنة قبل أن تلتقي بالقيصرية. ذلك اللقاء الذي كانت فيه المهادنة والتفاهم وتبادل المصلحة بين كنيسة مؤسسية وبين قيصرية حاكمة. وصال لا تزال آثاره بادية اليوم على شكل امتيازات الفاتكان ودبلوماسيته وتعاليمه فيما يخص السياسة العالمية، وزيارات البابا لأتباع الكنيسة زيارات تكلؤها الدولة وترعاها أنى حل.

كانت الدعوة والدولة في بني إسرائيل كتلة واحدة في مواجهة دائمة مع شعب رافض لدين الله. في تاريخ النصارى كانت الدعوة يتيمة على مدى ثلاثة قرون، فلما تنصر قيصر الروم قسطنطين سنة 306 للميلاد ضم الكنيسة المضطهدة إلى أحضان الدولة، واصطنع الأساقفة، وقربهم ليكونوا سندا للحكم. ومن ذلك العهد بدأ الوصال الأنكد الذي أدتنا إلى دراسته تأملاتنا في الفصام النكد. ومن ذلك الوصال تلقحت أزهار الفسق لتنعقد ثمارا إلحادية نعاني مرارتها في دار الإسلام على شكل علمانية هي اليوم وغدا خصم الإسلام الأول. لنا مع القومية من حيث كونها قومية لقاء، ولنا مع التراثيين

(1) اقرأ كتابنا «سنة الله».

إن لم يكونوا من مدرسة النفاق لقاء. أما إذا جاءت القومية والتراثية تُسِران كفرا فلا لقاء.

من أجل هذا نطيل النظر في منابع العلمانية وتاريخها، عسى ينصف العقلانيون من أنفسهم فيعالجوا معنا في حوار هادئ هذه «العقدة» العلمانية التي غص بها مثقفو الغرب وفلاسفتهم فجاء تراجمة الفكر فحولوها إلى هذه الديار، فألبسوا الإسلام لباس الكنيسة، وتخيلوا للإسلام كهنوتا وتحكما في الدين لا وجود لهما. نعم كان لعلماء القصور الأثر الرديء في تاريخنا ولا يزال لهم. وكان لسكوت علمائنا عن السلطان نتائجه السلبية. كل هذا نرجع إليه إن شاء الله. لكن شتان ما بين التاريخين والوصالين.

من هم النصارى؟

مرت النصرانية بعد رفع عيسى عليه السلام من أيدي دعاة إغريقيين، فامتزجت فيهم الفلسفة الأفلاطونية الجديدة، كما تلبست بالجمالية الوثنية اليونانية. حتى إذا دخلت النصرانية في طور سيادتها بين أحضان القيصرية الرومانية تبلور ذانك الاتجاهان فأعطيا للنصرانية البابوية روحها وجسمها: تأليه المسيح عليه السلام وعبادة التصاوير.

في القرآن الكريم نجد أن الله عز وجل سمى أتباع المسيح عليه السلام حواريين ومؤمنين، لكننا نجد تسمية «النصارى» مقرونة بتأليه السيد المسيح عليه السلام. لذلك نكون جانبنا الحق إذا سمينا النصارى مسيحيين ونسبناهم نسبة زور إلى رسول معظم من رسل الله. النصرانية كفر، بهذا شهد القرآن. والذين قالوا «إنا نصارى» هم أقرب إلينا مودة. فمعنا من آيات الله عز وجل ما يبرر حوارنا مع النصارى تحت ظل الأمل الوارد في قوله تعالى بعد ذكر المودة القريبة: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَاناً وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىَ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ آمَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّاهِدِينَ﴾[1] أمل وشرط. أمل أن يلحق نصارى اليوم والغد بالقسيسين والرهبان الذين وردوا على رسول الله ﷺ فسمعوا ما أنزل عليه فآمنوا فكانوا مع الشاهدين.

(1) سورة المائدة، الآيتان: 82 و83.

إن حرصنا على الحوار مع النصارى قد يكون داعيه السياسي معقولا، لكن داعيَه الإسلامي هو الأصل. وذلك أن تبلغهم الدعوة رجاء أن تكون آثار الرهبانية والرأفة حافزا للصادقين منهم على الإسلام. إن دعوة النصارى «المبشرين» وأجهزتهم وأموالهم ومؤسساتهم في عقر دار الإسلام تحديات مؤلمة. وجودها وأساليبها واستغلالها لفقر أمتنا وتفريط الحكام على رقابنا. تلك التحديات تنادي على تعبئة إسلامية تنازلهم في الميدان. لكن أصل الإسلام أن يبلغ، أن يهجم أن ينطلق من إيجابيته الجهادية. ومسؤوليتنا في جهاد التبليغ تقتضي أن نعمد إلى أصل البلاء كله، بلاء الإلحاد والعلمانية، فنحاربه كما يحارب رجال الإطفاء النار بضرب جذور الحريق.

إن مسؤوليتنا في تبليغ الدعوة للنصارى ينطق بها الحديث الشريف الذي رواه ابن منده عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «والذي نفسي بيده، لا يسمع بي رجل من هذه الأمة ولا يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا كان من أهل النار».

أسمع الناس، نصارى وغير نصارى، بدعوة النبي ﷺ؟ إنهم لا يسمعون عن الإسلام إلا شتم أعداء الإسلام للإسلام. ما بلغهم الخبر الحق، ما بلّغناه نحن. وهم بباطلهم يجوبون أقطار الأرض، يبشرون بألوهية البشر، ويعلمون الناس في مجاهل إفريقيا وفي عقر دارنا في إندونيسيا وغيرها عبادة الأصنام، ويطببون المريض، ويطعمون الجائع، ويؤسسون الجامعات: دولة عظيمة في الأرض هي دولة التبشير النصراني. وإن نزال العلمانية والإلحاد و«التبشير»

معركة واحدة، معركة شمولية. وبدء المعركة أن نعرف أصول البلاء، وقواعده، وروافده. وإلى هذا نرجع بعد هذا الالتفات.

إنها تجارة في الدين، سننظر إن شاء الله في الفقرات التالية إلى مظاهرها التاريخية فسبق القلم هنا بالحديث عن تجارة الكنيسة التبشيرية في أرواحنا وذممنا ومصيرنا.

البابوية والتجارة في الدين

إن في كتاب الله تبارك وتعالى إدانة للاتجار بالدين وشجبا له. قال عز من قائل: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَاقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلاَ تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾[1]. وفي هذا التذكير تحذير لنا أيتها الأمة المحمدية أن ننبذ الدين كما نبذه من قبلنا من أهل الكتاب، وأن نتجر بآيات الله.

ولئن اتجر أحبار اليهود في آيات الله فحرفوها ومارسوا السحر، فإن أحبار النصارى أتيح لهم أن يمارسوا التجارة في الدين تفصيلا وجملة: إذ إن المؤسسة البابوية تعاملت مع الدولة، تارة من موقع قوة وطورا من موقع تبعية، كما تعامل القساوسة فمن فوقهم من الأفراد. الكنيسة تبيع الإمبراطورية سندها فتقتضي الثمن ضياعا ومتاعا ونفوذا وتقاسما للسلطة. والقساوسة ورؤساؤهم يبيعون الأفراد «مغفرة الذنوب» و«البركة» والسمعة الاجتماعية بالأصفر الرنان.

كان الحقد التآمري الدفين في صدور اليهود، وظلمة الغربة، وبأس المنفى، والانكماش على الذات واختمار الأوهام في تلك البيئة، وتراقص الآمال أمام الأقليات اليهودية المهجورة اجتماعيا، دوافع لسعي اليهودي إلى الاحتيال على الدرهم والدينار لاستقطاب ثروات المجتمعات المضيفة، ولسعي كاهنة الساحر القارئ حافظ الأسرار لتوفير النصوص والفتاوى المبيحة لسرقة «الكويم» الأجنبي

(1) سورة آل عمران، الآية: 187.

غير الإسرائيليين المعتبر عندهم حيوانا لا حرمة له. والسحر إلى هذا كان دين «الكباليين» وحساب الأعداد، والتنجيم، وما تدره هذه السلطة من أرباح.

لكن لا نجد عند اليهود التجارة الكبرى التي أتاحتها البنية الكنيسية لدين النصارى. فمنذ جلوس قسطنطين على عرش روما الوثنية لم يلبث هذا القيصر أن أعلن اعتناقه لدين النصرانية الذي كان عندئذ قد أصبح دين «جماهير» واسعة. كان هذا سنة 306، فما كانت سنة 325 حتى انعقد مجمع نيقيا حيث اتفق أساقفة الكنيسة على طرد أصحاب المذهب الأرياني الذين كانوا يقاومون عقيدة تأليه المسيح عليه السلام. واختار الأساقفة الأناجيل الأربعة التي راقت اتجاههم لتكون هي النصوص الرسمية من دون الأناجيل التي ورد فيها ذكر نبي الهدى الذي بشر به المسيح عليه السلام مثل أنجيل برنيا. وفي سنة 787 انعقد المجمع الثاني في مدينة نيقيا ليثبت مشروعية عبادة التصاوير ويطرد من كانوا يقاومون عبادتها. وهكذا استمرت مجامع الكرادلة والأساقفة تحت سلطة البابا المنتخب تمارس سلطتها في التشريع، وتبني ما تراه من المعتقدات، وتؤول، وترسم الاتجاه الديني والسياسي للكنيسة. لا يحد من سلطتها نصوص هي نفسها اختارتها من بين النصوص العديدة التي ما منها كلمة واحدة ثبتت عن المسيح عليه السلام بالسند الثابت المنقود نقدا علميا كما هو الشأن في نصوص الحديث الشريف. وأقدم ما بأيديهم من هذه النصوص إنما هو ذكريات كتبت بعد رفع نبي الله عليه السلام بأكثر

من سبعين سنة. وهكذا أمكنهم أن يشرعوا من الدين ما لم يأذن به الله كما يشاؤون.

بدأ الفاسقون، كما وصفهم الله عز وجل في كتابه، في ممارسة التحريف والاتجار منذ عهد قسطنطين يقول «درابوا»: «دخلت الوثنية والشرك في النصرانية بتأثير المنافقين الذين تقلدوا وظائف خطيرة ومناصب عالية في الدولة الرومية بتظاهرهم بالنصرانية ولم يكونوا يحتفلون، ولم يخلصوا لها يوما من الأيام. وكذلك كان قسطنطين، فقد قضى عمره في الظلم والفجور، ولم يتقيد بأوامر الكنيسة الدينية إلا قليلا في آخر عمره: 337»[1].

وبينما كانت طائفة الرهبان على طول تاريخ النصرانية يمارسون تعذيب الجسم بجلد أنفسهم وبكل أنواع الإرهاق رجاء التغلب على نوازع الشهوة، وهذه بقية من آثار الرهبانية التي ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، كان رؤساء الكنيسة يمارسون المتعة واللذة والفسق في أخبث مظاهره.

نجد في تاريخهم الراهب ماكاريوس الذي نام ستة أشهر في مستنقع عفن ليقرصه الذباب السام، وكان يحمل دائما نحو قنطار من حديد. يوسبيوس كان يحمل قنطارين. يوحنا «عبد» ثلاث سنوات قائما على رجل واحدة لم ينم ولم يقعد طيلة السنوات الثلاث. رهبان عاشوا عراة إلا من شعرهم الطويل يمشون كالأنعام على أربع، يقتاتون بالحشائش، أبراهام لم يمس الماء وجهه خمسين

(1) كتاب «ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين»، لأبي الحسن الندوي، ص 185، دار الأنصار، القاهرة.

سنة، رهبان كانوا يعدون غسل الوجه حراما. رهبان كانوا يتجولون في البلاد يخطفون الأطفال ليربوهم تربية رهبانية.

هذه الذهنية الرهبانية غطت تلك القرون بظلام كثيف من الجهل، فتأثرت البيئة الأوربية بها. كانت المرأة عندهم حيوانا ورجسا وشيطانا. وكانت الخرافات التي ارتبطت في الأذهان بذكر «القرون الوسطى» هي نمط العيش وفلسفة الحياة. كان كبيرا تأثير الرهبانية الفارة من الدنيا السادرة في معتقدات «الخطيئة الأولى» و«الخلاص» و«التكفير» عن تلك «الخطيئة» الوهمية التي تلف البشرية جمعاء وتعرضها في زعمهم الخرافي لغضب الله وانتقامه. وعاشت عامة الشعوب النصرانية في هذا الأفق العقدي: العقول معتمة، والإرادات مكبلة، والمتعة الجسمية رجس، والبعد المادي للحياة أحبولة شيطانية.

أرض الجنة في المزاد العلني

في الجانب الآخر، بينما الرهبان في أديرتهم يعانون الجوع الإرادي، وقهر النفس، انطلق القساوسة والأساقفة والبابوات ورؤساء الكنيسة إلى جانب الأباطرة والقياصرة وأمراء الإقطاع يقطفون زهرة الحياة الدنيا حيث لا تراهم أعين الشعوب المرهبنة.

يقول الراهب جروم «JARUM»: إن عيش القسوس ونعيمهم كان يزري بترف الأمراء والأغنياء المترفين، وقد انحطت أخلاق البابوات انحطاطا عظيما، واستحوذ عليهم الجشع وحب المال. وعدوا طورهم، حتى كانوا يبيعون الوظائف والمناصب كالسلع. وقد تباع بالمزاد العلني، ويؤجرون أرض الجنة بالوثائق والصكوك وتذاكر الغفران. ويأذنون بنقض القانون، ويمنحون شهادات النجاة، وإجازات حِل المحرمات والمحظورات كأوراق النقد وطوابع البريد! ويرتشون ويرابون. وقد بذروا المال تبذيرا، حتى اضطر البابا «إنوسنت» الثامن (قلت: معنى إنوسنت: البريء!) أن يرهن تاج البابوية. ويذكر عن البابا «ليو» العاشر أنه أنفق ما ترك البابا السابق من ثروة وأموال، وأنفق نصيبه ودخله، وأخذ إيراد خليفته المرتقب (من بعده) سلفا وأنفقه ويروى أن مجموع دخل مملكة فرنسا لم يكن يكفي البابوات لنفقاتهم وإرضاء شهواتهم»[1].

(1) «ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين»، م س، ص: 191.

قال الله عز وجل يندد بالنصارى: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ﴾[1]. وقد فسر النبي ﷺ الآية: بأن عبادة النصارى أحبارهم ورهبانهم تعني طاعتهم لهم فيما يشرعون من الدين. وبالفعل، كانت للكنيسة السلطة المطلقة في هذا المجال. وكانت الشعوب المرهبنة تعيش تحت إرهاب الواعظ المزمجر وتحت سوط «اليد الدنيوية» يد الجلاد الذي كان ينفذ أحكام المحاكم الكنسية. وما عهود «التفتيش» وما واكبها من سوم البشر طيلة قرون سوء العذاب إلا صفحة من أشد صفحات التاريخ البشري سوادا. وما كانت مؤسسة التفتيش في قطر من الأقطار ولا في عهد من العهود أشد بطشا وأوسخ همجية مما كانت عليه ضد المسلمين في الأندلس، بعد سقوط غرناطة آخر معقل من معاقل الإسلام هناك، أعادها الله العلي القدير.

وتلك فترة لا نريد الالتفات إليها في هذا الكتاب الذي ينظر إلى المستقبل الزاهر بإذن الله جلت عظمته وتبارك اسمه ولا إله غيره.

وأدهى من تعذيب البشر وملاحقة المستضعفين التبليد الذي واكب ذلك، حتى تخدر حس الناس بالقيم، وحتى أصبح الناس لا يعرفون قبيلا من دبير أمام تناقض قادتهم. الرهبان في واد، ورؤساء الكنيسة في واد، وأولئك يعرفون بسلطة هؤلاء، وما للشعوب سوى الامتثال والسياط والجهل. قال «ليكي» يصور ما كان عليه المجتمع النصراني من التناقض في تلك العهود: «إن التبذل والإسفاف قد بلغا غايتهما في أخلاق الناس واجتماعهم. وكانت الدعارة، والفجور،

(1) سورة التوبة، الآية: 31.

والإخلاد إلى الترف، والتساقط على الشهوات، والتملق في مجالس الملوك وأندية الأغنياء والأمراء، والمسابقات في زخارف اللباس والحلي والزينة، في حدتها وشدتها. كانت الدنيا في الحين تتأرجح بين الرهبانية القصوى والفجور الأقصى. وإن المدن التي كان فيها أكثر الزهاد كانت أسبق المدن في الخلاعة والفجور. وقد اجتمع في هذا العصر الفجور والوهم اللذان هما عدوان لشرف الإنسان وكرامته. وقد ضعف رأي الجمهور حتى أصبح الناس لا يحفلون بسوء الأحدوثة والفضيحة بين الناس. وكان الضمير الإنساني ربما يخاف الدين ووعيده، ولكنه أمن واطمأن لاعتقاده أن الأدعية وغيرها تكفر عن جميع أعمال الإنسان. لقد نفقت سوق المكر والخديعة والكذب، حتى فاق هذا العصر في ذلك عصر القياصرة»[1].

(1) كتاب «ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين»، م س، ص 190، دار الأنصار، القاهرة. وقد استفدنا منه في هذه الفقرات.

اضطهاد رجال العلم

كانت الكنيسة في بداية القرن الحادي عشر الميلادي قد اشتد عودها وأصبحت منافسة للإمبراطورية. بل إنها أثبتت سيادتها، حتى إن الإمبراطور هنري الرابع اضطر أن يمثل بين يدي البابا في قلعة كانوسا متضرعا مستغفرا. وأصبح يضرب المثل لكل من انهزم أمام خصمه واضطر للخضوع، فيقال: «ذهب إلى كانوسا!».

وكان من الممكن بعدئذ للكنيسة أن تستعمل سلطانها الواسع ونفوذها السياسي والاقتصادي والمعنوي، ووجودها على جميع المستويات في كل أنحاء أوروبا لكي ترفع من مستوى الشعوب وتكون عامل تقدم وتحرر. ولكن لسوء حظ النصرانية، ولسوء حظ الأجيال اللاحقة، هيأت الكنيسة جو الظلم والاضطهاد الذي ترعرعت فيه جراثيم الأوبئة الاجتماعية وخرافية الفكر. ثم تفاقم فسادها وإفسادها رغم تقلص نفوذها في القرون اللاحقة، حتى لفظ مفكرو أوروبا الكنيسة وكل ما تمثله، وارتدوا إلى المادية الوثنية التي اتخذت أشكالا فلسفية وسياسية، إلى أن قامت الثورة الفرنسية عام 1789 بكسر الغل المميت الذي كان يخنق العقل والنفس.

كانت الكنيسة تقاوم العلوم النظرية والتطبيقية التي كانت تأتي من البلاد الإسلامية، من صقلية والأندلس. فكان الطب العلمي يحارب لترتع الشعوذة، وبذلك عاشت أوروبا قرونا طويلة عاش الناس أثناءها تحت كابوس الأوبئة والطاعون. كانت تعاويذ القس

تدر عليه أرباحا، فلِمَ يترك الطبيب ينافسه؟ وبث الرهبان في كتبهم أفكارا مخطئة في مجالات متعددة من مجالات المعرفة كالتاريخ والجغرافيا والعلوم الطبيعية والفلك. وليتهم إذ فعلوا ذلك قالوا: «هذا ما وصل إليه علمنا!» لكنهم أخذوا يؤيدون هذه الخرافات بحجج «دينية» ويدعمونها بنصوص مأثورة عندهم. فكلما تفتحت عقول الباحثين الأحرار للنتائج العلمية الإسلامية، وكلما تعلمت تلك العقول النقد المعرفي انكشف تزوير آباء الكنيسة. فلم يكن أمام هؤلاء للدفاع عن سمعتهم وسمعة دينهم الذي ورطوه في هذه المغامرات إلا أن يكفروا كل من عارض «الجغرافية النصرانية» و«علم الفلك النصراني» وسائر مسلماتهم. يكفرون علماءهم الأحرار ولو كانت كل البديهيات تؤيدهم.

وعندما اشتد ساعد العقل الجديد، وانتشرت مبادئ البحث الحر، ازدادت ضراوة الكنيسة وسلطت محاكم التفتيش على الناس تحرق وتقتل، وكان حكم الإعدام «بدون إراقة الدم» يعني التحريق. وقد طبق مثل هذا الحكم على عالم الطبيعة برونو. واضطر غاليليو أن «يقتنع» أمام المحكمة بأن الأرض لا تدور اتقاء ذلك البطش الفاتك. وكان هذا العداء السافر للعلوم، وهذا الاضطهاد الأسوأ للعلماء، أهم الأسباب التي فجرت في الطبقات المتعلمة كراهية الكنيسة وكراهية دينها. وذلك ما أدى آخر الأمر إلى الحل المحتوم، وهو انفصام بين العقل العلمي والخرافة، بين البحث الحر والتقليد السخيف لما في أساطير النصوص، بين الحياة الحرة والخضوع تحت نير الاستعباد.

الإصلاح والتجديد

في القرن السادس عشر انبعثت مقاومة للاضطهاد الكنسي والفساد الكنسي المتمثل في البابوية وبيع صكوك الغفران من داخل الكنيسة نفسها. وكان مارتن لوثر القس الألماني أهم ثائر في حركة «البروتستانية»، ومعناها الاحتجاج. كان ويكليف قائد هذه الحركة في إنجلترا، وزونعلي في سويسرا، وكلفن الفرنسي في فرنسا ثم في سويسرا حيث أسس جمهورية بروتستانتية في جنيف.

لكن هؤلاء الثوار النصارى لم يستطيعوا التخلص من الجرثومة التي نشأ منها الفساد وتوالد: ألا وهي الدين المحرف. إنما استطاعت الحركة البروتستانتية، خصوصا في الإمارات التي تكون اليوم ألمانيا، أن تتحالف مع أمراء الإقطاع الذين كانوا يرغبون، لأسباب سياسية، في التخلص من سلطان البابا. وبهذا الحلف استطاع المذهب البروتستانتي الذي يسمونه إصلاحا «**Réforme**» أن يحرر الناس من القس وكرسي الاعتراف و«الشفاعة» و«الغفران» وسائر تلك الطقوس. واستطاع أن يصرف الناس عن وجه الكاهن إلى «الإنجيل» مباشرة.

كان لمجرد تحرر البروتستانت من أغلال الكهنوتية أثر في سلوكهم. فهم معروفون إلى الآن بصلابة وجد، فلو كان التحرير شاملا عاما ووضع في أيدي الناس كتاب الله عز وجل الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو القرآن الكريم لظهرت الفطرة في صفائها.

لم يخرج لوتر عن دائرة العقيدة الموروثة وإن خرج عن دائرة السلطة البابوية. فهو وأتباعه بقوا يجولون في أجواء «الخطيئة» الآدمية، في زعمهم الباطل، التي يحمل كل إنسان من ميلاده وزرها، وعليه أن ينال المغفرة والخلاص بالانضواء تحت جناح «المخلص». فالإنسان في هذه العقيدة السخيفة آثم مذنب لمجرد وجوده. ولا يخفى ما يتولد عن هذا الشعور من تثبيط للإنسان. ويبقى كلفن وأتباعه يدورون مع عجلة «القدر المكتوب». ويا عجبا كيف صارت هذه العقيدة الجبرية حافزا للبروتستانت على التوغل في جمع المال بدل أن تدعوهم للتكاسل والتماوت!

كانت حركة «الإصلاح» هذه قد عبأت خير العقول الكنسية في الثورة على البابوية، مواكبة في ثورتها الحركة العامة للفكر المتحرر. لكنها لم تستطع أن تزيل الآثار العميقة لقرون الهيمنة الكنسية على المجتمع، بل بقيت هي نفسها رهينة نفس الأفكار. ولم تلبث السلطات السياسية أن استحوذت على مكتسبات «الإصلاح» واتخذت هذا المذهب أو ذاك سلاحا دينيا في الصراعات والحروب. العرش الإنجليزي استغل وجود تلك «الموجة» حسب التعبير الحديث ليستقل عن الكنيسة فيصبح ملك انجلترا أو ملكتها رئيس الدولة ورئيس الكنيسة معا. كان الجو العام بعد فشل الإصلاح يتهيأ لجولة حضارية جديدة، لجولة مادية تعتمد على العقل وإنتاجه، وترمي كل القيم الأخرى مع مخلفات الدين الكنسي. كانت النهضة «La renaissance» قد بدأت في إيطاليا وريثة المعارف الإسلامية، ومنها سرت فكرا وفنا ونمط حياة لتعم أقطار أوروبا على مدى ثلاثة

قرون. كانت رياح التجديد تهب في اتجاه معاداة الكنيسة وإسقاطها. وبعد تعسف الكنيسة الطويل اضطرمت ثورة «الفلاسفة» من أمثال فولتر وروسو اللذين يعتبران الأبوين الروحيين للثورة الفرنسية التي حسمت داء الكنيسة من جذوره.

حرب بين العلم والدين

يقول أبو الحسن الندوي، وقد أحسن أحسن الله إليه، في وصف هذه الهبة من جانب الفلاسفة: «هنالك ثار المجددون المتنورون وعيل صبرهم، وأصبحوا حربا لرجال الدين، وممثلي الكنيسة، والمحافظين على القديم. ومقتوا كل ما يتصل بهم ويعزى إليهم من عقيدة وثقافة وعلم وأخلاق وآداب. وعادوا الدين النصراني أولا والدين المطلق ثانيا. واستحالت الحروب بين زعماء العلم والعقلية، وعلماء الدين النصراني -وبلفظ أصح البولسية-[1] حربا بين العلم والدين مطلقا. وقرر الثائرون أن العلم والدين ضرتان لا تتصالحان، وأن العقل والنظام الديني ضدان لا يجتمعان. فمن استقبل أحدهما استدبر الآخر، ومن آمن بالأول كفر بالثاني. وإذا ذكروا تلك الدماء الزكية التي أريقت في سبيل العلم والتحقيق، وتلك النفوس البريئة التي ذهبت ضحية لقسوة القساوسة ووساوسهم، وتمثل لأعينهم وجوه كالحة عابسة، وحياة مقطبة، وعيون ترمي بالشرر، وصدور ضيقة حرجة، وعقول سخيفة بليدة، اشمأزت قلوبهم، وآلوا على أنفسهم كراهة هؤلاء وكل ما يمثلونه، وتواصوا به، وجعلوه كلمة باقية في أعقابهم»[2].

(1) نسبة إلى بولس مؤسس النصرانية الكنسية.

(2) كتاب «ماذا خسر العالم من انحطاط المسلمين»، م س، ص: 195.

لم يكن عند الفلاسفة طلب صادق للحق، ولم يكن أمامهم مصدر يستقون منه علم الحق، فنبذوا نبذ النواة الكنيسة، ونبذوا معها مبدأ الدين نبذا مطلقا. وورث العلمانيون من ذراري المسلمين تلك الحروب وتلك العداوة وذلك النبذ المطلق.

حضارة لا تعرف الله

كانت الولايات المتحدة الأمريكية آخر معقل من معاقل النصرانية. كان شعار: «الله، الأسرة، الوطن» يرسم الاتجاه التربوي، ويُلَقن للطفل منذ نعومة أظفاره. وكانت الكنائس المنتمية لمئات المذاهب المختلفة تمثل ديمقراطية الدين، لكنها في أغلبها لا تخرج عن إطار البروتستانتية أو الكاثوليكية وعن أخلاقية «المتطهرين» «المهاجرين» الأولين من انجلترا الفارين بدينهم من اضطهاد الدولة.

منذ ثلاثة أجيال بدأ الانحدار السريع، واستحقت «حضارة الكوكاكولا» اسمها، إذ يرمز المشروب الذي ساد العالم بسرعة إلى القيم المادية الصرفة، إلى المتعة واللذة، إلى الفراغ المعنوي والربح السريع الذي أحرزته الشركة التي احتكرت «أسرار» الشراب في مقدمة الشركات المتعددة الجنسية التي هي كنائس العصر ومعابده ومذهبه.

انتهت منذ أربعة أعوام ونيف رئاسة كارتر النصراني المخلص لدينه الذي كان ملجأ للضمير الأمريكي ووميضا ظنت أنه ينير لها الطريق بعد أن ادلهم أمامها المستقبل إثر هزيمة الفتنام وفضائح رئاسة نكسون. كانت التفاتة إلى الدين خاطفة، ثم تابعت الولايات المتحدة طريقها المنحدر لما سمعت صوت رئيسها الحالي ريكن الذي بشرها باستعادة الازدهار الاقتصادي والعزة الوطنية

واستراتيجية حرب النجوم. فأمريكا اليوم في مقدمة تيار الانحلال والبطش بالشعوب الضعيفة، في مقدمة موكب الحضارة التي لا تعرف الله عز وجل.

الحضارة الغربية اليوم تعرت نهائيا عن كل قيمة غير القيم المادية المنفعية المحسوبة عدا ونقدا أو استثمارا وانتظارا. المادية هي دين الديمقراطيات الغربية النصرانية اسما كما هي دين الاشتراكيات الشيوعية الملحدة مبدأ. دينها جميعا القوة العسكرية، والتوازن الاستراتيجي، والمصالح الاقتصادية، والتسابق إلى المراكز ذات الأهمية الجغرافية السياسية. وفي داخل تلك المجتمعات يتجه الإنسان إلى التمتع الدوابي، إلى الزنا واللواط اللذين أصبحا أمرا عاديا، بل نشاطا يحميه القانون، إلى الجريمة والمخدرات، إلى «الفن»، وكل ما تعطيه الكلمة من صور الهروب من الواقع، حتى إذا استنفد الإنسان كل ما جاءته به الحضارة المادية من أمن في المعاش ومن فرص اللذة، غدا ينتحر بجنون، ينتحر لينسى فراغه، لينسى هذا النعيم الدوابي الذي تضج منه الفطرة البشرية.

أريد هنا أن أنبه نفسي وإخواني، ونحن في محاولة لمعرفة الواقع العالمي معرفة مبصرة لا يكدرها التعصب ولا تلونها الرغبة الذاتية، أن هذه الحضارة المادية الملحدة الروح والاتجاه لا تزال قائمة، وأن الإنسان الذي صنعها لا يزال يتمتع بخصال إيجابية نحن أحوج الناس إليها وأفقر الناس منها. وهناك هذا التشبث الرائع بحقوق الإنسان، هناك جمعيات يتجمع فيها صفوة الضمير الإنساني وسط تلك الحضارة التي لا ضمير لها. بدون معرفة المستثنى والمستثنى

منه نكون نغر أنفسنا ونرضي الرغبة الصبيانية في تمجيد الذات من خلال تصوير الآخرين بألوان السواد.

يبقى أنها حضارة شيطانية، فالغرب الديمقراطي تحتضر فيه النصرانية احتضارها الطبيعي. والديمقراطيات الشعبية، وخاصة الاتحاد السوفياتي، خنقت الكنيسة خنقا كما خنقت المسلمين، وأفنتهم وأغلقت مساجدهم وصنعت لهم المفتي السوفياتي المعمم.

وأخيرا اعترفت الدولة الروسية بحرية الأديان في سياق «إصلاح» جربتشوف و«شفافيته» تيقنا أن تيار «الانفتاح» الديمقراطي سيجرف الأديان في بلاد السوفيات كما انجرفت في بلاد الديمقراطيات النصرانية.

جاهلية

هنا وهناك، في شرق الجاهلية وغربها، عم الجهل بالله عز وجل، واكتسح هذا الجهل كل مجالات الحياة، اكتسح النفوس والعقول والأخلاق والاجتماع والسياسة والقانون. لا يتحرك شيء ولا فكرة في تلك المجالات إلا والمنفعة هي المحرك، والجدوى المادية هي الهدف، وكلمة «اقتصاد» تؤدي هذين المعنيين، وتلخص المذهب المادي. ومن ضمن الاقتصاد، وفي سجلاته، حساب أسلحة التخريب، وحساب حانات الخمر، وحساب أوكار الزنا والقمار، وحساب المبيعات والمشتريات، ما قتل منها الإنسان، وما أفسد صحته، وما غيم عقله، وما أنساه وسلاه. الإنتاج من أجل الإنتاج. الإنتاج من أجل الاستهلاك. ارتفاع الناتج القومي، ارتفاع مستوى المعيشة.

يقول الأستاذ محمد أسد المسلم الوارد علينا من ماضيه اليهودي النمساوي، وهو خبير من أهلها يشهد بما هنالك: «لاريب في أنه لا يزال في الغرب أفراد عديدون يشعرون ويفكرون على أسلوب ديني، ويبذلون جهود القانط حتى يوفقوا بين معتقداتهم وبين روح حضارتهم. ولكن هؤلاء شواذ فقط. إن الأوربي العادي، سواء عليه أكان ديمقراطيا أم فاشيا، رأسماليا أم بلشفيا، صانعا أم مفكرا، يعرف دينا إيجابيا واحدا هو التعبد للرقي المادي، أي الاعتقاد بأنه ليس في الحياة هدف آخر سوى جعل هذه الحياة نفسها أيسر فأيسر، أو كما

يقول المثل الدارج: «طليقة من ظلم الطبيعة». إن هياكل هذه الديانة إنما هي المصانع العظيمة، ودور السينما، والمختبرات الكيماوية، وباحات الرقص، وأماكن توليد الكهرباء. أما كهنة هذه الديانة فهم الصيارفة، والمهندسون، وكواكب السينما، وقادة الصناعات، وأبطال الطيران. وإن النتيجة التي لا مفر منها في هذه الحال هي الكدح لبلوغ القوة والمسرة، وذلك بتكوين جماعات متخاصمة مدججة بالسلاح، ومصممة على أن يُفنيَ بعضها بعضا حين تتصادم مصالحها المتقابلة. أما على الجانب الثقافي، فنتيجة ذلك تكوين نوع بشري تنحصر فلسفته الأخلاقية في مسائل الفائدة العملية، ويكون أسمى فارق لديه بين الخير والشر إنما هو التقدم المادي»[1].

وردت كلمة «جاهلية» في القرآن الكريم مقترنة بالحمية والعصبية. والعصبية القومية اليوم هي الرباط الاجتماعي الذي لا يزال السمة الغالبة عمليا على تكوينات الدول المصنعة. وإن كانت شعوريا وثقافيا تزعم أنها تجاوزت القومية بعد استقرارها وبعد الحروب الدامية، ومنها الحربان العالميتان، التي اصطدمت فيها القوميات.

الجاهلية بعد هذا تحمل معنيين آخرين: الجهل ضد المعرفة، فهي لا تعرف الله تعالى، والجهل ضد الحلم، وهو العنف. بهذا تكون الجاهلية مفهوما عاما لا يصف حالة الجزيرة العربية قبل الإسلام، بل حالة كل مجتمع توفرت فيه السمات الثلاث: حمية وعصبية تنافيان التحزب لله عز وجل، ثم الجهل بالله عز وجل ولو

(1) «الإسلام على مفترق الطرق»، ص: 47 و48، الطبعة السادسة، دار العلم للملايين.

كانت المعارف الكونية غزيرة، ثم ما يترتب على تينك المقدمتين من عنف. ولا مراء في أن المجتمعات التي ولدت فيها الحضارة المادية كردة فعل ضد الدين الكنسي، وولدت فيها الدولة القومية كحقيقة الحقائق السياسية، وعرفت أشنع الحروب، وصنعت القنابل الذرية وسائر الوسائل الجهنمية، هي مجتمعات جاهلية. يرحم الله شهيدنا سيدا قطبا فقد كان الصوت الناصح الذي لا يعرف الهوادة حين ندد بالجاهلية وقابلها بالإسلام، فأوضح مفهوما كان يتردد تحت قلم أبي العلاء المودودي رحمه الله.

لكن أين تمر الحدود بين الجاهلية والإسلام؟ أين يقطع الخيط الفاصل بين الحق والباطل؟ أيمر عبر الدول؟ أم عبر الطبقات؟ أم عبر الأحزاب السياسية؟ أم عبر المذاهب؟ أم في قلب الإنسان؟ أم في عقله؟ أم في التاريخ؟

نرجع إن شاء الله لكل هذه المعاني: إنما نضع هنا صوة من صوى الطريق في انتظار العودة المنهاجية. والله المستعان.

إننا معاشر المسلمين في أوائل هذا القرن الخامس عشر المبارك، أمة مستعبدة، أمة اختلطت فيها القيم بفعل الاستعمار والغزو الثقافي، وتشعبت أمامها الطرق، وتأزمت فيها السياسة، وتأزم الاقتصاد، وعلت فيها الآراء العلمانية القومية، واختلفت المذاهب. وكل هذا يهون في جنب الدعوة المعلنة أو الضمنية للعلمانية، وبالتالي والتابع المنطقي للإلحاد. فالأسئلة المنهاجية أمام هذا الخطر، وعلى ضوء ما آل إليه أمر النصرانية، هي: هل نتحرر ضد الإسلام أم بالإسلام؟

هل القومية والعلمانية خدنان لا يفترقان؟ هل العنف ضرورة للتحرر؟ إذا كان، فضد من ومع من؟

إن للإسلام الرسمي الموروث، إسلام الواجهة، إسلام أجهزة الحكم الجبرية في بلادنا، ارتباطات بأعداء الإسلام في الخارج، وارتباطات طبقية في الداخل، وصبغة محلية قومية، ووظيفة تخديرية. وإن تأملا بسيطا لاستعمال «المارشال - الإمام» النميري للشعارات الدينية كاف أن يقنع كل من لا يعرف من الإسلام إلا إسلام الوجوه المنافقة بأن الدين أفيون الشعوب. كاف أن يقنع من يعرف تاريخ الجاهلية المعاصرة ومداخلها ومساربها إلينا أن «الإسلام بخير» فما الإسلام؟ وما الجاهلية؟ وما الطريق؟

الأصالة الجاهلية

كان الطلاء النصراني الذي اصطبغت به أوروبا قرونا طلاء سطحيا. وإن تاريخ الكنيسة الحافل بأسماء «الدكاترة الدينيين»، والإنجازات المعمارية، والمعابد القوطية المشيدة، والسلطان الدنيوي الفخم الذي تمتع به البابوات ما هو إلا هيكل تذكاري لواقع حقيقته رهبنة الشعوب وسيادة نظام كهنوتي رأينا بعض صفاته. كانت الجذور الوثنية راسخة في ضمير تلك الأمم، لم تستأصل النصرانية تلك الجذور وإنما استغلت وجودها. ولم تكن عبادة التصاوير وتأليه المخلوقات وخرافية الطقوس إلا مظهرا لتلك الجذور المتأصلة. الكاهن يقدم «للمصلين» خبزا هو في زعمهم الغريب جسم المسيح، ويقدم لهم خمرا هي في زعمهم السخيف دم المسيح، فما خرجوا من كنيستهم إلا وقد أكلوا ربهم وشربوه. والأوثان المنحوتة والمصورة ملء العين أنى توجه النصراني، في البيوت والأماكن والمعابد.

كل ذلك مما امتزج في أذهان الدعاة النصارى الإغريقيين والرومانيين على مر العصور، وفي نفوسهم وعاداتهم، ثم برز وكأنه هو الدين. فلما اكتشف النصارى حضارة اليونان والرومان في عصر «النهضة» انفتحت لهم بحار واسعة لتعود فيها مياه الوثنية وتلتقي تياراتها. واكتشفت النخبة المتعلمة أصالتها في الحضارتين الوثنيتين القديمتين، واعتمدت على تلك الأصالة لتجذر حربها ضد الكنيسة. فمن الخطأ أن يظن أحد أن الحضارة المادية المعاصرة تستند إلى

شيء غير ميراثها الوثني القديم من أثينا وروما. وما بقي من ظلال اليهودية والنصرانية لا يتعدى زخارف ثقافية احتفظ بها للتجميل، أو عاشت على الهامش. والكنيسة اليوم رغم ثروتها ودولتها هامشية بكل معيار، بعد طوفان القومية والعلمانية.

الانتماء القومي الذي انعقد دولا قومية في أوروبا حادث لا يتجاوز عمره قرنا ونيفا. لكن جذوره تمتد إلى الاعتداد الروماني بالمواطنة الرومانية، وإلى صلف الرومان واحتقارهم للشعوب، عصبية وحمية هي العنصر الأساسي من عناصر الجاهلية الثلاثة.

العنصر الثاني هو الجهل بالله عز وجل. إنه سرعان ما تبخرت الروحانية الشرقية المنبثقة عن الرسالة المسيحية، ورسالة سيدنا عيسى عليه السلام هي الإسلام بعينه فيما يرجع للعقيدة، عقيدة التوحيد، والإيمان باليوم الآخر، والجزاء والعدل بين الناس. سرعان ما تبخرت الروحانية التي عاشها الحواريون والمؤمنون ولم يبق بعدهم إلا مسحة روحانية نسبناها للشرق عموما لنعرف مستقرها الأرضي بعد أن انقطع نسبها السماوي. تبخرت تلك الروحانية الشرقية تدريجيا، وحل محلها الجمالية الوثنية الإغريقية، والشعرية الأسطورية الإغريقية، والطقوس الوثنية الإغريقية. كان الإغريق يعبدون «آلهة» يسكنونهم في جبل الألمب في خيالهم الأسطوري. كان لهم كبير «الآلهة» يسمى زوس وله زوجات وخليلات، وكان لكل صناعة وفن ومرفق من مرافق الحياة «إله» خاص، ولكل بلدة «إله» يحميها، ولكل أهل حرفة «إله» ناصر، ويتبارى المثالون والنحاتون في تجسيد «الآلهة» أصناما لها معابد وسدنة وميزانية. كل

هذا ترجمته النصرانية فاعتقدت وجود إله أب، وابن، وروح قدس، وتعلقت أوهامهم بمريم العذراء عليها السلام فألهوها. وعمدوا إلى بعض موتاهم فأحلوهم محل «الآلهة» الإغريقية الثانوية، ومثلوهم وعبدوهم، ونذروا لهم النذور، وقربوا لهم القرابين، واحتمت بهم المدن والحرف. الآن لا تكاد تسمع أو تقرأ أو تبصر في حياة أوروبا الثقافية والفنية إشارة إلا إلى تلك الأصول اليونانية. الألمب و«آلهته» وأساطيره وشخصيات خرافاته هي الإطار المرجعي، لا الكنيسة وشخصياتها. رجعت المياه إلى مجاريها والعهر اليوناني والعري، وعبادة الجسم، وتأليه الجمال، ومقاسات الفن. كل ذلك ينبع الآن من أصله الصافي.

أستأذن القارئ الكريم في وقفة لنتأمل نقطة هي عندي من الأهمية بمكان. هذه «الآلهة» التي عبدها اليونان، وعبدتها الشعوب الوثنية ولا تزال، ما هي؟ وما أصلها؟ إن هنالك وثنية حية اليوم، كما كانت دائما في أفريقيا، وآسيا، وأوروبا، وأمريكا الجنوبية. وتضرب الولايات المتحدة الأمريكية الرقم القياسي في تنوع هذه الوثنية، وانتشارها، وتلونها. لا أقصد هنا الوثنية المادية، وثنية السلعة أو وثنية الجسم البشري أو ما شابه. أقصد الوثنية الحقيقية، العبادة، القربان، الاعتقاد. دارت الأمور دورتها، وعادت أوروبا وأمريكا جنبا إلى جنب مع الشعوب البدائية إلى الوثنية الأصلية، ومن أشكالها وثنية اليونان. ما معنى هذه الوثنية وما مبناها؟ إننا نحن المسلمين نبرهن عن جهل إن اكتفينا بالموقف السلبي في هذا الموضوع، الموقف الإيجابي أن نفهم وأن نعلم غيرنا. والحق معنا في كتاب الله عز وجل.

قال تعالى يخاطب خلقه من بني آدم: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لاَّ تَعْبُدُواْ ٱلشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ وَأَنِ ٱعْبُدُونِي هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاًّ كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُواْ تَعْقِلُونَ﴾[1]. وفي كتاب الله العزيز وصف شامل لإضلال الشيطان بني الإنسان، والتغرير بهم، والوسوسة لهم، والتزيين والإلقاء. من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فهو يؤمن بالغيب، ومما غيب عن أعيننا الجن، ومن الجن شياطين وقرناء. فهذه الآلهة التي كان يعبدها كفار العرب ويسمونها اللات والعزى ومناة هي مظاهر مادية من ورائها شياطين بأعيانها وأحزابها وعشائرها. كذلك زوس وفولكان وأفروديت عند اليونان، ما هي إلا مظاهر لشياطين بأعيانها وأحزابها وعشائرها. والعبادة نفس العبادة. في أمريكا الجنوبية والوسطى وأفريقيا يسمى التعبد للشياطين فودو، وفي مصر والسودان والشرق يسمى زارا، وفي المغرب يسمونه دردبة إلخ...عبادة الشيطان، من عهد آدم عليه السلام، تزاحم عبادة الله عز وجل، والقرآن شاهد. وليس من اختراع الخيال ما ينسجه اليونان وكل عابد للشيطان من أحداث أبطالها ما يعتقدونه آلهة، بل هو التزيين والإغراء، والإجلاب بالخيل والرجل، والاستفزاز، والوسوسة التي ذكرها الله عز وجل في كتابه العزيز ونسبها للشيطان.

هذه إذن الركيزة الثانية للجاهلية: الجهل بالله عز وجل، وهو كما نرى في كل جاهلية تستحق الاسم، مثل جاهلية العرب العتيدة وجاهلية اليونان، جهل مركب، إذ يعتقد الجاهليون أن لهم آلهة حقا،

(1) سورة يس، الآيات: 60-62.

يذبحون لها، ويسمعون منها أو يترجم عنها الكاهن، ويناجونها، وتتراءى لبعضهم، وتخبرهم بواسطة الكاهن أو في منام أحدهم ويقظته بأحداث.

لا أدري ما نوع العلاقة العاطفية التي تربط عشاق الجاهلية من المثقفين العرب، الناطقين عن الهوية والأصالة، بهذا التراث الشيطاني. العقلانية التي يتقدمون بها لا تقبل بالطبع المقولات الغيبية كالجن والشيطان والملائكة. لكن ما وراء ذلك؟ أية وثنية تقبع وراء العقلانية الإلحادية وتنتظر فرصة للظهور؟

الركيزة الثالثة للجاهلية هي العنف الجاهلي. وأي إمبراطورية كانت أشد وطأة وأكثر وحشية من الإمبراطورية الرومانية؟ لا جرم أن تكون الحضارة الأوربية المعاصرة لا تؤمن إلا بالقوة، ولا تبنى إلا على القوة، ولا تتعامل إلا مع الأقوياء، ولا تحترم إلا القوة، ولا تخاف إلا من القوة، ولا تقيس إلا بمقاييس القوة. القوة هي المظهر السياسي للجاهلية. إذا كانت القومية هي الأساس والمبنى، وكانت الجهالة الوثنية بالله العلي القدير هي اللب والمعنى، فإن السيطرة بالعنف، والاستكبار الفرعوني في الأرض هما الوظيفة الحيوية، والرسالة الحضارية.

إذا كانت القومية هي جذور هذه الشجرة الجاهلية وجذعها، وكانت الوثنية الجمالية اليونانية فروعها ونضارتها، فإن ثمرة تلك الشجرة الملعونة هي العنف والإفساد في الأرض.

التركيبة الجاهلية في المجتمع الذي يتخذه بعض ذراري المسلمين نموذجا هي كما رأينا:

1. الأصالة القومية، وفي ركابها الزهو بالعرق واللغة والتاريخ والتراث.

2. العنف الجاهلي ويتجلى في الحروب القومية، والحروب الاستعمارية، والحروب الطبقية، والحروب بوسائط الدول المستضعفة، وصناعة الأسلحة المخربة، والقنابل النووية، وعسكرة الفضاء.

فإلى أي مستقبل توجهنا الدعوة القومية؟ وإلى أية وثنية ستنتهي العلمانية بالمتعبدين لها؟ ثم أين القوة التي بناها القوميون والعلمانيون منذ هذه الستين سنة التي حكموا فيها بلاد العرب المسلمين؟ أين القوة التي صنعها مصطفى كمال وأتباعه ومذهبه القومي العلماني منذ أن اغتصب الحكم واغتصبه أتباعه في بلاد الترك المسلمين؟

إن هو إلا تقليد فاشل، تقليد الفاشلين، تقليد الضعفاء للأقوياء. وإنه لا مناص من مواجهة العالم الجاهلي بالسلاح الوحيد الذي يرهبه، ويكرهه، ويحقد عليه حقدا مزمنا، ألا وهو الإسلام.

شبح الحروب الصليبية

هذا الفصل في موضوع العلمانية تطاول وتشعب، فإذا بنا في الجن والشيطان والوسوسة، ما علاقة هذا بعنوان الفصل؟ وما موقع الفصل برمته من استراتيجية الكتاب؟

كنا وضعنا في كتاب «مقدمات في المنهاج» صيغة المنهاج النبوي وحركته وجدليته، فإذا بنا هنا فيما يتراءى نصف من جانب التحزب لله تعالى وللإسلام واقع الآخرين وتاريخهم. فهل رغنا هنا عن الموضوع الذي أسسناه هناك؟

إن معرفة ما يعترض طريق السالك إلى الله عز وجل، وما يهدد تنهيج قلبه وتنهيج عقله، وما يعرقل سيره إلى الله تعالى داخلة في شرط هذا الكتاب، حسب تعبير علمائنا.

وإن معرفة ما يعترض طريق حزب الله عز وجل، وما يهدد تنهيج إرادتهم وتنهيج حركتهم، وما تصطدم به خطاهم وهم يواجهون الواقع، داخلة في هذا الشرط.

وإننا إذ وضعنا اللسان العربي والتراث، ونظرنا في الأصالة والتحديث، وطرحنا العلمانية للبحث سرنا سيرا متسلسلا حتى توسعت دائرة أبصارنا في الزمان والمكان، فإذا بنا وجها لوجه مع الواقع الكامل، مع الجاهلية الرابضة بكل أفق أمام حركة الإسلام.

من يحصر أفقه في التناقض العيني المحس المباشر الوقتي بين إسلام متحرك وحضارة مادية ماثلة تعترض طريق الحركة وتعاكسها

وتناصبها العداء وتقاتلها دون أن يستفسر التاريخ عن روح تلك الحضارة، وعن كونها مظهرا وقتيا لنفس الجاهلية التي بعث الله لقتالها الأنبياء، فقد تقصر نظرته. وقد تغيب عنه الخصائص المعنوية والمادية للإسلام إذا لم تتضح أمامه الخصائص المعنوية والمادية للجاهلية. خوفا من هذا القصور نربط الفكر العلماني الذي لا مناص من التعامل معه، لأنه يكون شطرا من واقعنا، بأصوله الجاهلية. فإذا عرفنا أصله وفصله وأين نشأ ومم يتغذى، أدركنا أن المعركة معركة واحدة، هي المعركة بين الجاهلية والإسلام، ولم نجزئ نظرتنا، ولم نبعثر جهودنا.

يذكر عنوان هذه الفقرة بصيغة مألوفة فيما يكتبه بعض الإسلاميين حين يتحدثون بشاعرية وانفعال ورثاء عن مصير الإسلام المهدد، وضعفه الحاضر، والمؤامرات المحيطة به. كلمات «شبح» و«حروب» و«صليبية» من قاموس الخطابة الانفعالية، لكننا نستعملها بقصد آخر. نستعملها لوصف الكيان المعنوي الذي يشبه الشبح في تخفيه وإلحاحه وغشيانه، ولوصف حروب فعلية تاريخية مضت وأخرى قائمة، ولوصف واقع صليبي يتجلى هذه السنوات في كره الإسلام وقتاله، وفي ظهور العداء السافر المنظم للمسلمين. في ظهور حزب سياسي في فرنسا مثلا شعاره وبرنامجه طرد العمال العرب والمسلمين من فرنسا.

ويمكن من هذه الزاوية أن نقيس الوجود السياسي الرسمي للصليبية في فرنسا قياسا إحصائيا. فقد نال حزب لوبن الصليبي أحد عشر بالمائة من أصوات الناخبين لعضوية البرلمان الأوربي. لا تسرع فتظن أن عنصرية سياسيي اليوم لا دخل لها بالصليبية.

نصف واقعا معاديا لحركة الإسلام، لكن لا الرثاء للذات رائدنا، ولا وجود مؤامرات فعلية يغلق علينا سدول العجز الناشئ عن الجهل والكسل، ولا قوة العدو ومكره يلجئاننا إلى الهروب من ميدان المواجهة تحت حماية الجبرية الموروثة لنمسح في القضاء والقدر نتائج تصورنا الفكري والعملي المخطئين. نرجو. نرجو أن يعطينا الله جلت عظمته ذلك الوضوح في الرؤية، وذلك المضاء في العزيمة، فإنه لا حول ولا قوة إلا به، ونرجو منه عز شأنه التوفيق والنصر.

عرضنا كيف انمسح المجتمع الأوربي من طلاء النصرانية، وكيف عاد إلى وثنية أصوله اليونانية الرومانية. لم يبق إلا شواذ من الناس يتدينون بذلك الدين، وإلا الكنيسة البابوية ونسيباتها البروتستانتية والأرثوذكسية المنتشرة في العالم. ولهذه الكنيسة مخططاتها وأجهزتها ووسائلها. لا تزال هذه الكنيسة تحمل معها التوجه إلى العالم لتبلغه «رسالة الخلاص». هناك تنصير منظم، جيوش مجهزة بالأموال ووسائل النشر والاتصال. جامعات، وإرساليات وخيريات، وجرائد ومجلات، وإذاعات وتلفزات. إنها نوع معاصر من نفس الاتجار بالدين الذي عهدناه. الشواذ من الأوربيين والأمريكيين -وهم في أمريكا كثرة- الذين لا يزالون يترددون إلى الكنائس يغدقون العطاء للكنيسة التي تعبئ الرؤوس التنصيرية لاستنهاض نخوة النصراني المكتظ بالمال والمتاع ليلقي بعض فضوله للشعوب «البدائية» الجائعة المسكينة، عساها تتعرف من خلال الإحسان على المخلص وطريق الخلاص. والمكتظ يتخفف ضميره بما يلقيه.

جيش، وأركان حرب، وتعبئة وتحكمات موقعية، واستراتيجية وبرامج، وقيادة. إنها حرب التنصير الصليبية. صليبيتها بالنسبة لكل الشعوب ما عدا المسلمين تعني أنها تنتشر تحت رمز الصليب، وما يشير إليه الصليب من دين. أما بالنسبة للمسلمين فهي امتداد للحروب الصليبية التي دامت اصطداماتها العنيفة بيننا وبينهم قرونا.

هذه هي الواجهة الحركية لامتداد الحروب الصليبية. وإن لها لمعارك يومية قائمة. لنقل غزوات لأن من يقاوم الغازي لا وجود له حتى تكون المسألة معركة. في كل يوم للتنصير مكاسب. في كل يوم يُنصَّر مآت وآلاف من أطفال المسلمين الذين مات عائلهم. في كل يوم تكتسح الثقافة النصرانية مجالات واسعة، وتحتوي شبابا متكاثرا، ما معي إحصائيات، لكن من المؤكد أن أندونيسيا المسلمة هي الآن الميدان المفتوح للغزو التنصيري الصليبي. الجماعات الإسلامية هنالك تقاوم ما أمكنها، لكن مساندة الحكم العلماني غير المحدودة للنصارى لا تسمح أن يكون هنالك معركة حقيقية. هنالك ينادي حال النصارى : يا لثارات الحروب الصليبية!

الواجهة الثقافية للغزو الصليبي المعاصر تتمثل في الاستشراق، كان الاستشراق ولا يزال سلاحا معرفيا يحارب به الاستعمار الأمة الإسلامية. كانت بحوثهم ترمي لاكتشاف تاريخنا الماضي، واكتشاف خصائصنا الإثنولوجيه وعاداتنا وحركات قبائلنا، وروابط مجتمعنا، وأفكار خاصتنا وعامتنا واتجاهات فكرنا، لتصوغ من كل ذلك معلومات يبني عليها الاستعمار سياسته. وكان لهذه البحوث ولا يزال جانبها العاطفي المحض، جانب الحقد على الإسلام،

واحتقار الإسلام والمسلمين، ذلك الاحتقار الموروث. وبهذا كانت ولا تزال الدراسات الاستشراقية تؤدي مهمتين اثنتين: ما فيها من معلومات موضوعية يتراكم فهي محصلة «علم الاستعمار»، وما فيها من إيديولوجية تحارب الإسلام يسري سموما ثقافية ليكرّه للمسلمين دينهم فينسلخوا عنه. كان المستشرقون ولا يزالون يتبعون في دراساتهم منهجيتين، تتصاحبان أو تتناوبان، ولا تتنافيان في هذه العقول العبقرية، إحداهما منهجية الاستقراء العلمي الدقيق وفحص المعطيات تهيئا لاستنتاج علمي. وهذه تخصص لما يخدم «علم الاستعمار». والأخرى هي منهجية النتائج المسبقة التي يذهبون أشق المذاهب وأكثرها تعسفا على التاريخ والواقع الحاضر ليثبتوها بشواهد مصنوعة محبوكة.

لا يعدل النشاط التنصيري العملي اليومي العسكري الذي يصادر الضمائر ويقتطع الحياة إلا النشاط الاستشراقي الذي يصادر العقول ويقتطع الثقافة. وما هما إلا وجهان لنفس الحقد الصليبي الموروث، سواء شعر المنصِّر والمستشرق شعورا آنيا، وقصد قصدا آنيا، أم لا. العبرة بالروح السارية، العبرة بالصورة المشوهة التي يرسمها المستشرق عن الإسلام والمسلمين، وبالتشويه الذي يحدثه الآخر النشيط المتحرك في حياة المسلمين ومجتمع المسلمين.

تلقى فيالق التنصير الدعم المادي السخي والدعم المعنوي من مجتمعات الغرب، لا تمثل مساهمة النصراني الشاذ بتدينه إلا جزءا بسيطا من موارد التنصير. الكنيسة ثرية إلى حد التخمة. مصارف وشركات ومعامل، وعقارات، ومدخرات، ثم هنالك التشريع القومي

الذي يفتح باب التبرع ويشجعه في الولايات المتحدة الأمريكية. كل مال تبرع به الأفراد أو الشركات للأعمال الخيرية يخصم من الضرائب. وأول من يستفيد من هذا الباب المفتوح التنصير.

وتلقى فيالق الغزو الثقافي مثل ذلك الدعم المادي والمعنوي. إن المجتمعات الجاهلية تزداد شعورا بأن التنصير والاستشراق طلائع لنشر حضارتها. وفي مطبخ العواطف الجاهلية يمتزج الشعور الإنساني الشريف بضرورة العطف الإنساني على الإنسان، والدفاع عن حقوقه، وإطعام الجائع، بالشعور القومي، بالشعور الجاهلي، بنداآت المنصرين، بتصويرات المستشرقين، بتأليبات الأحزاب والمنظمات العنصرية، بالمخزون النفسي الصليبي، فتعطي الطبخة طعاما يقدمه المنصر والمستشرق والإعلامي ألوانا ونكهات ليعود في حلق تلك المجتمعات المطوية على كره الإسلام يغذي فيها الشعور، وليلتهمه المقلد البليد من بني جلدتنا ويستلذه ويتمثله، فإذا به منصر مستشرق، دسيسة للعدو بين ظهرانينا، ظاهره الطلاء الإنساني التقدمي، وباطنه من قبله العذاب. وإنه لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

حقيقة الحروب الصليبية اليوم

الحروب الصليبية التي تحمل هذا الاسم في التاريخ دامت، مع انقطاعات، مدة مائة وخمس وسبعين سنة من سنة 1095 إلى سنة 1270 ميلادية، لكن الاصطدام بين الإسلام والنصرانية ابتدأ مبكرا واستمر إلى مطالع هذا القرن. ثم استمر إلى يومنا هذا صراع بين المسلمين والدول الاستعمارية بعد أن لم تبق للأمة دولة. يكفي أن نذكر بالقتال البطولي والمقاومة الفذة التي واجه بها المسلمون في الجزائر واحدة من أقوى الدول القومية النصرانية. وقد تجد من يجسر على تزوير التاريخ مع قرب عهده فينسب المقاومة الجزائرية لواقع قومي أو «تقدمي» ثوري. وما صمد الشعب المسلم ثماني سنوات إلا بالنداء الإسلامي الذي سمعه ولباه الفلاح في أقاصي جباله وصحرائه، والمستضعف الذي قاتل «الكاوري» لكفره قبل قتاله لكونه مستعمرا. هكذا كانت الدوافع الحقيقية، ولمن شاء أن يُلبس التاريخ ثياب الزور فله الحرية في أن يبرهن على سوء نيته وغبائه. سرق العصرانيون تلك الثورة المسلمة، فهم ينسبونها لغير فراشها، والعهر السياسي ألوان. ويجدون في الجو الثقافي المُغَرَّب قبولا لتفسيرهم، لأنه أكثر ملاءمة لروح العصر أن نتحدث عن ثورة شعبية جماهيرية، فعندئذ تكون مفخرة ويكون النصر على مستوى تقدمي اشتراكي. أما أن نذيع أنها حرب بين المسلمين وأعدائهم في الدين من حيث كونهم مسلمين ومن كون أعدائهم كفارا معتدين، فهذا تخلف وكسف لصورة الحادثة التاريخية العظيمة بكل مقياس.

كنت أستمع أمس إلى ريجيس دبري المفكر الماركسي الثوري الفرنسي الشهير رفيق شي كفارا في حروب العصابات بكولومبيا في أمريكا الجنوبية يجيبهم عن أسئلة حول كتاب له جديد بعنوان: «الإمبراطورية ضد أوروبا». أوقفني في كلامه، لما سألوه عن الإسلام الصاعد وما يمثله من خطر على الحضارة الغربية، ما مؤداه: «ماتت الماركسية، أو ما يسمى ماركسية، تاريخيا. وليس هنالك فكرة أو عقيدة تدفع أصحابها ليركبوا شاحنة من المتفجرات ويقتحموا بها العدو إلا الإسلام». هذا أدرك معنى استعداد المسلم للموت في سبيل الله، معناه التاريخي الحاسم. علمه ذلك وعلِمه عقلاء العالم، ما عدا المزورين من بني جلدتنا. جهاد المسلمين الفريد في جنوب لبنان بعد أن لقنهم مبادئ هذا العلم مقاومة الشعب المسلم الأعزل في الجزائر أعتى قوة في أوروبا.

هذا مضى، والحرب الإسلامية في أفغانستان مستمرة بين الإيمان الأعزل والدبابة، بين أعنف جهاز عسكري عرفه التاريخ البشري وأقله إنسانية وأشده وحشية وبين الشعب المسلم المسلح بإسلامه الشعبي التقليدي. فماذا يكون لو تجددت الأمة وتجدد إيمانها؟ خوفا من هذا هب القوميون البعثيون في العراق ليقتلوا في مهدها ثورة إيران الإسلامية بمشاركة من طرف دول الاستكبار العالمي قاطبة.

كل هذا العنف المبرمج والعفوي يدخل بشرعية معقولة تحت عنوان «الحروب الصليبية»، حتى ما كان من غزو السوفييت لأفغانستان. ما فعل الحمر الملحدون إلا تكملة حروب صليبية قادها الحكم القيصري من قبل ضد بخارى وطشقند، ضد شعوب

التركستان والقوقاز والطجكستان. نسأل الله جلت قدرته أي يعيد للإسلام تلك الديار، وأن ينصر إخواننا في أفغانستان وفي كل مكان. لا نملك غير ذلك. وقد سألني يوما قاضي التحقيق: «لماذا نشرتم في صحيفتكم صورة مجاهد أفغاني ببندقيته؟ ولماذا تكثرون من ذكر الجهاد؟»

إن استيقاظ المسلمين وقدرتهم على المقاومة، واستعدادهم للموت في سبيل الله، زاد من فزع أعداء الإسلام، وأرعب نفوسا وعقولا نشأت في الجو الثقافي الذي تحدثنا عنه آنفا. منذ نحو شهر (أكتب اليوم السبت 6 شعبان 1406) اقتحمت فتاة مسلمة دون العشرين بشاحنة المتفجرات سربا من العربات المصفحة اليهودية في جنوب لبنان. هذا الخبر وأمثاله صعق العالم الصليبي صعقا. إنها تعبئة جهادية ما سمع العالم بمثلها. وما سمعنا أنه كانت امرأة في صفوف الكامكاز اليابانيين أثناء الحرب العالمية الثانية.

أستأذن في فتح قوسين سريعين هنا. لعل أحد المؤمنين يسأل، وسؤاله في موضعه، عن حكم الله في أن يندفع مسلم أو مسلمة في صفوف العدو وهو موقن أنه ميت؟ بعبارة أخرى: ما هو حكم الله في هذا النوع الجديد من خرق صفوف العدو؟

روى أبو داود وابن أبي حاتم في التفسير والحاكم وصححه، وصححه الذهبي أيضا، عن أسلم بن عمران أنه غزا من المدينة تحت إمرة عبد الرحمن بن خالد بن الوليد مدينة القسطنطينية، وفي الجيش صاحب رسول الله ﷺ ومضيفه في بيته يوم هاجر أبو أيوب الأنصاري. قال أسلم: «والروم ملصقو ظهورهم بالمدينة».

يعني أنهم كانوا على أشد تعبئة لحماية أسوارهم. قال: «فحمل رجل منا على العدو، فقال الناس: مه! مه! لا إله إلا الله يلقي بيديه إلى التهلكة!».

كان أبو أيوب أفقه القوم فقال: «إنما تؤولون هذه الآية: هكذا أن حمل رجل يقاتل يلتمس الشهادة أو يُبْليَ من نفسه!» يعني رضي الله عنه أنهم فهموا الآية: على غير وجهها إذ ظنوا أن التهلكة هي التماس الشهادة وإظهار أقصى الحرص والجهد في ذلك. قال: «إنما نزلت هذه الآية: فينا معشر الأنصار. لما نصر اللّه نبيّه قلنا بيننا خفيا (خفية) من رسول اللّه ﷺ: «هلم نقيم في أموالنا ونصلحها!» فأنزل الله تعالى: ﴿وَأَنْفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ﴾[1]. قال: «فالإلقاء بالأيدي إلى التهلكة أن نقيم في أموالنا ونصلحها وندع الجهاد». قال أسلم: «فلم يزل أبو أيوب يجاهد في سبيل الله حتى دفن بالقسطنطينية».

(1) سورة البقرة، الآية: 195.

كونوا مع الصادقين

لا إله إلا الله! التهلكة أن تشتغل عن الموت في سبيل الله بمالك تصلحه، لا أن تقتحم المخاطر وتموت لتحيا الأمة.

ولعل الحادثة التي أشار إليها الصحابي الجليل وقعت في غزوة العسرة، في العام التاسع من الهجرة. وهي الغزوة التي نزلت بمناسبتها سورة التوبة التي تمثل دستورا كاملا للجهاد، وبيانا شاملا لنظامه، ودرسا وافيا لدوافعه وموانعه، وإعلانا خالدا لنشر لوائه، ومنشورا عسكريا في تفصيل مهماته. وفي سورة البقرة هذا التوبيخ للذين يلقون بأيديهم إلى التهلكة فيقعدون عن الجهاد ولا يحبون الاستشهاد. وأهم مشكلة تدور حولها سورة التوبة الكريمة مشكلة التخلف عن الجهاد. بمناسبة هذه الغزوة التنظيمية وقع الفرز بين المنافقين الأعراب المتخلفين عن رسول الله ﷺ الذين رغبوا بأنفسهم عن نفس رسول الله ﷺ حسب التعبير القرآني. ومعناه أنهم لم ينهضوا مع رسول الله ﷺ في غزوته الشاقة تلك، ولم يواسوه، ولم يفدوه بأنفسهم. وكان من بين المتخلفين المؤمنين كعب بن مالك وصاحباه، وقد كانت نازلة الثلاثة درسا لكل مسلم أبد الدهر مادام القرآن تتلوه القلوب المؤمنة.

غزوة العسرة هذه وفقه أبي أيوب رضي الله عنه وموقفه مع جند الله أمام أسوار القسطنطينية تقفل الدائرة وتضع أمامنا عنوانا على بدء نهاية تاريخ الحروب الصليبية الممتد في عصرنا، عنوانا على صورة الفدائي المسلم.

كان الفداء والرغبة في الاستشهاد الروح التي حملت أمة الإسلام بقيادة رسول الإسلام ﷺ وقدوته إلى الساحة التي كان متوقعا أن يكون فيها أول اصطدام بين الإسلام والنصرانية. هذا الاصطدام وقع بالفعل في السنة العاشرة من الهجرة في مؤتة ولم يحضر رسول اللّه ﷺ. لكن غزوة العسرة هذه التي جاءت بعد سنوات جدب، وجاءت في عز الصيف، صيف الجزيرة، وجاءت وقت طيب التمر، وقصدت مسافة طويلة عبر الرمال الحارة القاحلة إلى مشارف الشام، كانت المحك العملي الذي عليه عُيرت قابلية التعبئة بين المؤمنين وعيرت قدرتهم على الإنجاز الشاق بالوسائل الشحيحة. ابتُلي يومها بذْل المؤمنين وسخاؤهم بالمال، وابتُلي صبرهم، وابتُلي حبهم لله ورسوله بالمقابلة مع حب الأهل والمال والراحة، وابتُلي وفاؤهم بالبيعة، وابتُلي صدق إيمانهم. فتمايز المنافقون والمؤمنون، تمايز المتخلفون والمجاهدون، تمايز حزب الشيطان وحزب الله.

كانت هذه التعبئة التامة مقدمة بين يدي الصدام الطويل بين الجاهلية العالمية والإسلام، تلت الجهاد المحلي الذي قاده رسول الله ﷺ ضد الجاهلية العربية حتى دانت العرب للإسلام.

ومن السنة التاسعة للهجرة بدأت الحروب الصليبية. كانت واقعة مؤتة أول «تجربة»، وكانت قاسية، بعد استعراض العسرة. وكأن الأقدار الإلهية شاءت أن لا يرحل المربي القائد حتى يتأكد من صلاحية صنع يديه الكريمتين. كانت العسرة مراجعة عامة، تلتها المناورة «الحية» في مؤتة. وكان النقد الإلهي يتابع العملية، ويشير إلى الخلل، وينبه إلى الثغرات في الصفوف. أراد الله عز وجل أن لا يرحل

أبو الأمة ومنشئها ورمز وجودها حتى يمر جند الله من عملية العيار. وكانت القيمة الممتحن فيها هي القابلية للفداء وطلب الاستشهاد.

ذكر الله عز وجل في كتابه العزيز الثلاثة الأنصار الذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في غزوة العسرة وكيف ضاقت بهم الأرض بما رحبت لما قاطعهم المسلمون وأحسوا بأنهم جرثومة مرفوضة لرخاوتها في مجتمع معبأ، وذكر سبحانه توبتهم إلى الله ومراجعتهم لخصال الإيمان ونية الجهاد، ثم توبة الله تعالى عليهم. وقال سبحانه بعد ذلك ليعلمنا كيف ينبغي أن يتخفف المجتمع الإسلامي من عناصر النفاق ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ مَا كَانَ لأَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِّنَ ٱلأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ ٱللَّهِ وَلاَ يَرْغَبُواْ بِأَنْفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾[1]. فالكينونة مع الصادقين، الكينونة مع الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة، التحزب بصدق وفدائية مع حزب الله، هي اقتحام العقبة، هي الامتحان الدائم على صدق الجندية للّه تعالى، هي تتويج التربية وثمرة الإيمان. كيان متماسك، حي من داخله بعلاقات المرحمة، قوي على صد العدوان الخارجي بِعُدّة الصبر.

وندد الله تعالى بالذين يرغبون بأنفسهم عن نفس رسول اللّه ﷺ. هذا هو رمز الإسلام، حي ماثل مقدِم على معركة. الإسلام مشخص في رجل، الأمة مدلول عليها بعزمه وقيادته وموقفه في مقدمة الصف. فأولئك الذين لا تهب غيرتهم على الرمز، ولا يحدثون أنفسهم بفدَائه بالمال والنفس، لن يستطيعوا يوما، ولن يستطيع من هم على

(1) سورة التوبة، الآيتان: 119 و120.

شاكلتهم، أن يهُبّوا لفداء المرموز إليه الخالد، وهو الحقيقة التاريخية لاستمرار الإسلام وانتصاره.

إن جند الله الذين برزوا من عرينهم كالأسود كانوا حملة رسالة هي أعز عليهم من أموالهم وأنفسهم. وكانوا نتاج تربية وتمحيص واختبار على محك الأحداث العسيرة. كان الأدب الاجتماعي عند العرب يقتضي أن يفدى الكبير والعزيز بالآباء والأمهات، فيقال له عند الخطاب: «بأبي أنت وأمي!» وهكذا كان الصحابة رضي الله عنهم يخاطبون رسول اللّه ﷺ. بيد أن الصيغة الأدبية لا تلبث، بعد الالتحام العضوي بالجماعة الصادقة، وبعد تغلغل حب الله ورسوله في القلوب، أن تصير تعبيرا عن نية، عن إرادة، عن تصميم. وتجيء الأحداث القاسية لتفرز أهل النفاق والارتفاق والكلام المعسول من الصادقين. ولمدى عشر سنوات اختبرت صفة الصدق في الصف المجاهد. في غزوة أُحد كان سيدنا أبو طلحة رضي الله عنه يترس بجسمه عن رسول الله ﷺ، يعرض ظهره لسهام العدو مخافة أن تصيب الرمز المحبوب المفدى. ولئن كان الصحابة قالوا عن ذلك اليوم مخلدين الحدث: «اليوم كله لأبي طلحة!» فإن أبا طلحة لم يكن الوحيد في فدائيته. هذا سعد بن الربيع يخاطب المسلمين وهو يلفظ أنفاسه الزكية في المعركة: «لا عذر لكم عند اللّه إن خُلِصَ إلى رسول اللّه ﷺ وفيكم عين تطرف!».

وتدرجت التربية بجند اللّه من الولاء لرسول اللّه ﷺ إلى الولاء للّه عز وجل. حتى إذا فجعتهم وفاة الرجل العظيم، النبي الكريم، وأخبرهم أبو بكر الصديق أن من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد

مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، كان ذلك إيذانا أن الإبّان جاء ليرتفع المؤمنون درجة أخرى في الصدق، فتكون حياتهم وقفا دائما للّه عز وجل، مجردا عن كل مجاملة أو تعلة أو شبهة أو تعلق أو تملق تتستر وراء الولاء للأشخاص.

نذكّر هنا بروح الجهاد عند جند اللّه بعد أن تعرضنا لشبح الصليبية لنؤكد على أن الذي يتصادم في الميدان الدائم قضيتان تتجاوزان الأجيال والمكان والزمان. نستبشر لظهور الفدائية الإسلامية على الساحة اليوم بعد أن طال انحناؤنا الخانع أمام ضربات المعتدين. وإنه إن شاء اللّه تعالى لميلاد جديد للمعاني التي انتسج منها كياننا المعنوي، تشخص جديد للذات الإيمانية الجهادية. تباشير ميلاد وتشخص على كل حال، لأن الشباب الذي يرتمي على الدبابات في أفغانستان ولبنان لم يتزود بتربية كالتربية التي أنشأت سعدا وأبا طلحة، ولا قريبا منها، كل زاده الميراث الحي الذي بقي كامنا هذه القرون الخامدة كما يكمن الجمر تحت الرماد. فهو الآن ينبعث بدعوة الإسلام. والحمد للّه رب العالمين.

تاريخ الحروب الصليبية

كان الاصطدام على عهد عمر الفاروق، رضي اللّه عنه، بين المسلمين والنصارى البيزنطيين صداما عدائيا عنيفا. لكن واقعة اليرموك وما تلاها وسبقها من وقائع لم تكن إلا مناوشات في أطراف الإمبراطورية البيزنطية. ثم إن نصارى المشرق البيزنطي الأرثوذكس لا يمثلون إلا جناحا ضعيفا في النصرانية. لم تشعر روما ومؤسساتها المركزية بخطر. لم تمس النصرانية في صميمها.

في سنة 711 للميلاد فتح المسلمون مع طارق بن زياد الأندلس. هنا بدأ الصدام الحقيقي، هنا شعرت النصرانية الأوربية بالتهديد. ولم يمض نصف قرن حتى هبت الإمارات الشمالية في إسبانيا القشتالية، من ورائها تأييد الإقطاعية النصرانية والكنيسة البابوية، لاستعادة الأندلس. ودامت حروب «الركونكستا»، أي استعادة ما ضاع، ثمانية قرون حتى سقوط آخر معقل إسلامي في غرناطة سنة 1492.

من خلال حروب الأندلس تعرفت النصرانية على بأس المسلمين وتعلمت كرههم. كما تعلمت من خلال معايشتهم المباشرة وبالوسائط الحضارة الفذة ومبادئ العلوم.

في القرن الحادي عشر الميلادي كانت الكنيسة قد بلغت من القوة ما يكفي لأن تعبئ أوروبا عن بكرة أبيها. فحرضت على «الحرب المقدسة» لاستعادة القدس و«قبر» المسيح، في زعمهم الفاسد،

أمراء الإقطاع وعامة النصرانية. وهكذا لبى نداء البابا أوربان الثاني رعاع العامة وأمراء الفيودالية يتقدمون جيوشهم المجيشة.

واستمرت الحروب المسماة بالصليبية اصطلاحا من سنة 1095 إلى سنة 1270، مع انقطاعات. واحتل النصارى مدنا ومعاقل في الشام وفلسطين، وغزوا مصر وتونس. وكان نهاية هذه الحروب فشل النصرانية الكامل بعد أن احتلت بلادا لم تكن يومئذ قابلة للاحتلال الدائم، لم يعد أهلها، بعد الحقبة الأولى، صالحين للاحتلال.

نلاحظ أن المبادرة كانت في يد المسلمين في القرن الأول، قرن موسى بن نصير وطارق بن زياد. كانت المبادرة في يد المسلمين قبل ذلك في عهد عمر بن الخطاب لما احتل المسلمون القدس. وكانت «الركونكستا» ردة فعل. وكانت الحروب الصليبية ردة فعل.

في عصرنا أصبحت المبادرة في يد الاستعمار منذ دخول الإنجليز الهند والفرنسيين الجزائر. وقد انجلى الاستعمار «الجسدي» وبقيت حقيقته. وهي هي الحروب الصليبية مستمرة متجددة وإن اختلفت المظاهر، وتخفت بواطن النيات. من اللقاء العدائي في الأندلس تعلمت أوروبا منذ طفولتها المبكرة علم أمة في فتوتها ونضجها. من اللقاء على ساحات المشرق، ومن الاستيطان في القدس وعكا وأنطاكيا، تعلم فرسان أوروبا مبادئ حضارة متقدمة. والوضع منعكس اليوم. فمن المحتم ومن العسير معا أن نسجل منذ الآن حصيلة ما يبقى عندنا وما يجب أن يكنس من مخلفات الاستعمار. المرحلة التاريخية التي نعيشها مرحلة تصفية. ولئن كانت ضرورة اقتباس علم أوروبا وتكنولوجيتها تتراقص في ضمائر الأمم المغلوبة

على أمرها فإنما هو ولوع الطفولة الحضارية بالوسائل الظاهرة القوية. وأسبق من اقتباس العلم والتكنلوجيا استعادة الذات، الكينونة، الوجود المتميز، الروح. أكون قبل أن أفعل. فإن تصديت للفعل ووجودي مبتور فالهزيمة محققة.

في سنة 1099 احتل الفرسان الفيوداليون القدس وتوجوا ملكا عليهم بودوان الثاني. عاشت هذه المملكة ثمانية وثمانين سنة، حتى فتحها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي، رحمه اللّه ورحم رجاله، سنة 1187. ولم يكن انتصار صلاح الدين حادثة مفاجئة، بل كان نتيجة تهيؤ وإعداد واستعداد بدأه سلفه الملك الصالح نور الدين محمود بن زنكي رحمه اللّه. لا نزكي على اللّه أحدا، نحسبه كذلك وتشهد له أعماله الصالحة.

التفتت التاريخي

﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَالَمِينَ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَاْ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ﴾[1] في هذه الآية: الكريمة يلقن اللّه عز وجل نبيه أول المؤمنين، ويلقننا بتلقينه، موقف الإنسان الحر الذي وعى الغاية وعرف المنهاج ووطد العزم على سلوكه بكل ما أوتيه. صلاته ونسكه توجه قلبي للّه عز وجل خالص. محياه وما في المحيا من مقومات مادية ومعنوية وعقلية وعلمية وعتادية هي من لوازم القوة، كله للّه رب العالمين. ومماته نُصْب عينيه، ولقاؤه ربّه عز وجل مطلبه، فهو مستعد ليتقدم إلى الموت بخطى الثبات، بخطى الذي يعلم إلى أين هو رائح، ومن أجل أية قضية هو رائح.

هذا الموقف المنهاجي لم يكن فلسفة ولا كلاما يلقى لتردّده الألسن، بل كان عملا واعيا مؤثرا في التاريخ، شاملا كل نشاط المجتمع، موجها له. كانت هنالك جماعة حية حياة الإيمان، حاملة على أكتافها عبء الرسالة، وعبء تبليغها، وعبء الجهاد من أجلها بما يقتضيه الجهاد من بذل بلا حدود حتى بذل المهجة في القتال.

موقف واحد جمع العلم والعمل، جمع الرحمة والحكمة، تضافرت فيه القلوب والعقول والجهود.

أمة واحدة، جند معبأ، أمامه طريق واضح لوضوح الغاية وهي لقاء اللّه عز وجل.

(1) سورة الأنعام، الآيتان: 162 و163.

هذه صفات الذات الاجتماعية المجندة، ولم نتعرف بعد للعقبة المتعرضة وسط الطريق، لا استهانة بالموانع الموضوعية، لكن إبرازا للدوافع الذاتية.

أول ما يتعرض له المحلل المادي، خاصة إذا كان ماركسيا، أن ينظر في المقومات المادية، في المنشأ الطبقي، في وسائل الإنتاج، في «المرحلة التاريخية». ونحن عندما قدمنا في الفقرة الماضية أن الصراع في الحروب الصليبية كان بين قضيتين عنينا ضمنيا أن العقبة كانت جانب جند الله متجاوزة. في تلك الانطلاقة كان الناهج على الطريق، كانت الأمة موحدة. فلما ضعف الناهج انتكست خطاه، وتفتت وحدته. أرجعْنا هذا التفتت في عنوان هذه الفقرة للتاريخ لننظر العوامل الموضوعية كيف نخرت موقف المسلم الفرد، وكيف بددت الجماعة، وكيف أوهت القوة. والأمر للّه لا يفعل سواه، ولن تجد لسنته تحويلا.

كان انتصار صلاح الدين وجنده رحمهم اللّه نتيجة إعداد واستعداد. كانت نتيجة ترميم للوحدة، وتجديد لتلك الروح الفدائية الأولى التي كانت قد ضمَرت في الخمسة القرون ونيف التي تفصل صلاح الدين عن البعثة المحمدية وعن تاريخ مولد الجماعة عام الهجرة. ثم ذهب صلاح الدين رحمه اللّه فتراجعت الأمور القهقرى، وانتصرت عوامل التفتيت، فما جمع الأمة بعد ذلك إلا القوة العسكرية المملوكية العثمانية الإسلامية التي لا يمل العلمانيون من بني جلدتنا من ثلبها ونعتها بكل نقص، مبرهنين على جهلهم بالتاريخ وتجاهلهم طبيعة المنحدر الذي هوت فيه الأمة.

بدأ التفتت التاريخي في حرب صفين سنة ستة وثلاثين للهجرة على الضفة اليمنى للفرات. مكان وزمان تقاطعت فيهما دوافع الاقتحام الصاعد ودوافع الانتكاس بعد أن تصادمت الإرادات، وتناضلت العقول، وتلاطمت أمواج الفتنة، وتصاف المؤمنون، وتقاتلوا، وأفنى بعضهم بعضا ليلة الهرير، تلك الليلة الليلاء التي كان فيها بأس المسلمين بينهم أشد ما كان على طول أحداث السيف بين المسلمين وفداحتها. وبقي لتلك الليلة الشنيعة هذا الاسم الحيواني لأنها كانت بداية لتقلص حيواني في الحكم، وبالتالي لتقلص عام. الهرير صوت الكلب حين يُبرز أسنانه مهددا بالعض، ونظام الملكية الذي تضرب جذوره لتلك الليلة سماه رسول اللّه ﷺ ملكا عاضا أو عضوضا. فمن يهر، ومن يعض؟ ليل، هرير، عض، رموز وحقائق.

هذا الشرح والانشطار بعد التحكيم كان بداية لتفتت لا يزال بالأمة يقطعها إربا إربا على مر القرون حتى انحلت كل الروابط الإيمانية التي تجمع المسلمين، وتسطح الإسلام في نسك فردي وصلاة صورية وحياة خانعة وممات على فراش الهوان. إننا والحمد للّه وله المنة نعيش اليوم فجر بعث جديد وتركيب جديد متجدد لكيان الأمة. نرى فرحين بفضل اللّه كيف عادت الصلاة والنسك حياة، وكيف أصبحت الحياة جهادا، وكيف يؤدي الجهاد إلى الممات للّه رب العالمين لا شريك له كما أُمرنا. فللّه الحمد والشكر. ومن حمده تعالى أن نطالع سنته في التاريخ لنتابع أسباب التفتت، فنضعها موضعها في تسلسل قانون اللّه في الأمم والمجتمعات، فنكون أقدر على فهم ما يحدث في الأمة من داخلها، وما يتسلط عليها من خارجها،

وما يهددها في كل لحظة من انهيار داخلي لا قدّر اللّه. والفهم مقدمة العمل لترشد إن شاء اللّه تعالى الحركة الإسلامية الناهضة.

كان التحكيم في صفين إيذانا ببروز الخلاف المذهبي والسياسي. كان على عهد الصحابة رضي اللّه عنهم اختلاف في الرأي يؤول في العبادات والفتوى إلى تنوع وتسامح، وفي السياسة إلى تشاور وتوافق، وإلى عزمة الخليفة أمير المؤمنين. من التحكيم ظهر الخلاف، وهو تعصب، وتنافر لا توافق، وتشدد لا تسامح، وتكفير للخصم، وقتال له، واغتيال وتآمر، وأحقاد، وعداوات تتولد على مر العصور وتتوارث. يهمنا بعد معرفة الأسباب العقائدية المذهبية التي صاحبت ظهور الملكية وانشطار الأمة أن نعرف ماذا تمثله اجتماعيا واقتصاديا الطبقة الحاكمة، وإلى أي بيعة ينتمي الخوارج والشيعة. عندنا يسبق النزاع العقائدي في الخطورة بمراحل كثيرة أسباب التفتت الأخرى، طبقية اقتصادية سياسية إلخ... عكس ما ينتحيه الماديون في تحليلهم. وحدة الموقف في الصلاة والنسك تسبق وحدة المحيا والممات. العقيدة معقد الكيان. سماع النداء وإرادة تلبيته يرد الظروف الموضوعية والنزاعات البشرية إلى مرتبة موانع يجب أن تقتحم. نقول ونعني أن الإسلام لم يولد نتيجة توقان طبقي، ولا كان لأسرة عربية مهما كانت عصبيتها أن تستولي على الحكم، ولا للنظام الاستبدادي أن يستمر هذه القرون، لولا النزاع العقائدي السابق «وركوب موجته»، ولولا تغذية عوامل الانحدار وإضعاف عوامل الاقتحام بالرشوة والتزوير.

ها نحن عدنا إلى النقطة التي منها بدأنا تأملنا في العلمانية ودواعيها. وسبق أن قلنا إن الإسلام لم يعرف التحريف لأن اللّه عز وجل كمل لنا ديننا قبل رحيل الرسول ﷺ. لكن انحراف من انحرف يفرزه ويفرده انحراف مذهبي وسياسي، انحراف مذهبي نشأ عنه انحراف سياسي، انحراف سياسي برره انحراف مذهبي. أين وحدة الأمة؟

إن بعض الباحثين العلمانيين يأبون إلا السباحة من أسفل التيار التاريخي لأعلاه عكس التسلسل الحدثي والمنطقي. فهم يريدون أن يلتقطوا كل حجة وكل شبهة لدعم دعوتهم إلى فصل الدين عن الدولة، أي إلى الإلحاد. فيتقهقرون بخطاهم إلى الوراء، ظهرهم إلى الإسلام ومنبعثه، ووجوههم إلى معبود الماديين: المستقبل. إشكاليتهم تبرير تعددية الإسلام التاريخية، وتوجيهها، وتجميدها. ونحن إشكاليتنا أمام التجمد التعددي، أمام الانشطار التاريخي، أن ننظر إلى المنبعث والمولد والنشأة والمراحل التاريخية، ونتتبع خطوات الانحدار عن العقبة لنلتمس ونحن إن شاء اللّه في صعود إلى الوحدة. انحدار كانت أسبابه النزاع المذهبي ومصائب الانحراف السياسي وجناية المُلك العاض والاستبداد.

هم يتهموننا بالمثالية عندما نعطي الأسبقية للعامل الذاتي، ويتهموننا بالرجعية عندما نضع التحليل الطبقي في المكان الثاني، ويتهموننا عندما ننظر المبعث والميلاد والنشأة بأننا ماضَوِيون. هناك أسلوبان لتفسير المستقبل ومواجهته، أظن أن العلمانيين اختاروا أقلهما ذكاء. التراث عندهم مخلفات تُجُووزت. ونحن تاريخ ميلاد

الأمة، ونشأتها وصعودها وانحدارها، درس لنا دائم. فما لديهم من حل، إنما هو تسكع فكري فقط لأن الأحداث تجاوزتهم، إلا أن يلفقوا.

نزاعات مذهبية فانشطار، فحروب فتنوية. وكان السيف على منحدر تاريخنا يصلت بين المسلمين أكثر بكثير مما كان يصلت على أعدائنا. مقتل الإمام علي كرم الله وجهه، قومات آل البيت منذ الإمام الحسين عليه السلام فالإمام زيد، الحرب السياسية ثم القتال بين شيعة آل البيت ضد الأمويين. انتصار العباسيين. الحروب المذهبية بين سنة وشيعة، بين سلفية ومعتزلة، بين معتزلة وأشعرية. فتن الزنج والقرامطة. الدولة العبيدية الإسماعيلية. ولاية السيف وتضاؤل «الخلافة» العباسية. سيادة العساكر البويهية الشيعية، ثم غلبة السلجوقية السنة. التفتيت العقلي الفلسفي للعقيدة.

ما من مذهب ظهر، ولا حرب سياسية، ولا ثورة، ولا قتال بين المسلمين إلا وزاد التمزق فداحة. وكان الاستبداد أهم عوامل التفتيت مهما اختلفت الراية التي رفعها. فلا نصل إلى سنة 541 التي تولى فيها نور الدين محمود بن زنكي إمارة حلب إلا والأمة أشتات، والصليبيون قد أسسوا مملكة لهم في القدس الشريف منذ 48 سنة، فكيف فعل صلاح الدين والحالة هذه حتى استطاع طرد الغزاة، يا من يحلمون ببطل لمستقبلنا على صورة صلاح الدين المثالية؟

الملك الصالح

يقول العلمانيون الواقعيون الذين لا تستهويهم مثالية الأبطال: اطرحوا الدين فهو العرقلة. ولا ينتظر منهم أن يميزوا بين التحريف الذي حاد بالمسيحية الأولى فوضعها في طريق التنصر الكنسي وبين الانحراف الذي حاد بالناس عن طريق الإسلام وبقي الإسلام هو الإسلام شاهدا على من انحرف، متمثلا في الاستقامة الأولى، متجسدا في النموذج النبوي الخلافي، خالدا في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وفي القلوب المؤمنة التي لا تزال بذورها صالحة توارثت الصلاح والصلاحية عبر قرون الانحراف والفتنة. هم يريدون أن نطرح الرضيع مع ماء الغسيل، هذا مثل مترجم يفهمونه. ونحن نحب أن نحتفظ بالرضيع لأنه حي، ولأنه قابل للنماء، ونريد أن يتغذى بالغذاء الصحي الذي تغذى منه سلفه في نشأته الأولى. أما الماء الملوث فليس طرحه باليسير. إن ما تراكم في المجتمع المسلم من مخلفات التخويف الاستبدادي والنزاع المذهبي، وصبغ السلوك بصبغة غير الصبغة الأولى صبغة الصادقين، وطبعه بطابع الجمود والتعصب ومهادنة الاستبداد، تراث لا يزال هو غذاء الإنسان الغثائي. هذا التراث الموبوء هو ما يحب التراثيون المنافقون أن يعتمدوا عليه حين يتملقون «المخزون» النفسي لدى الجماهير المسلمة. وخوضهم في ذلك الماء الكدر يلقي ظلال التشويش في ضمائر طبقة من تلامذة الجامعات ونفوسهم يغترون بإفرازات هذه البذور النكدة الفاسدة.

منذ أن أصبح الحكم بين المسلمين ملكا وهريرا وعضا انتحت الدعوة ورجالها، فلم تعد الدولة هي راعية الدعوة كما كان الأمر من قبل. لم يعد السيف في خدمة المصحف، افترق السلطان والقرآن فحاول السلطان تفسير الدين لتبرير موقفه. سلطان قائم يبرر مشروعية بقائه، وحق مناهض خذله الرجال لقلة ما معهم من إيمان (الإمام الحسين عليه السلام مثلا). وباطل ثائر يلبس مسوح الدين (المختار الثقفي مثلا). والفقهاء في مواجهة مع أثل الفلسفة والإلحاد.

هذا التفتت في الدولة والمذهب صاحبه تفتت في الدعوة، فتطوع أهل العلم والصلاح لتربية الأمة وتعليمها هنا وهناك، الوعظ في المسجد مع العامة، والقاص الشعبي بما معه من علم قليل. أمر تربية الأمة على الإيمان لم يعد القضية الأولى للدولة بعد انفراط عقد الجماعة الأولى وسيادة العصبة الأموية التي دعت نهوض مطالبات وعصبيات منافسة ومضادة. معنى الإيمان نفسه أصبح موضوع نقاش ومزايدة. فمن المهتدي ومن الضال؟ كل حامل سيف سواء كان في الحكم أوفي الثورة يزعم أنه البذرة الصالحة، ووارث الإيمان، وقلب الأمة النابض.

ويستمر الخلاف والتفتت إلى منتصف القرن السادس الهجري حين يبرز الملك الصالح الذي أيد الله به الدين، فرمم القاعدة الاجتماعية السياسية التي بنى عليها صلاح الدين الأيوبي الصالح الثاني القوة التي استعادت القدس من أيدي الصليبيين.

إننا لا نصدق أن الفرد البطل يأتي فيقلب الموازين ويصنع وحده تاريخا جديدا. لكننا لا نصدق أيضا أن الحتمية التاريخية، هذه الماهية المحجبة العجيبة، تقوم مقام الرجال وتعوض مبادرة الأفراد الصالحين الأقوياء. إن القائد القوي الصادق كان في كل تاريخ النواة التي حولها ابتنيت الحركات، العامل الاقتصادي السياسي يأتي من بعد. الاقتحام ذكر في القرآن قبل العقبة.

حول القيادة الصادقة تتبلور فكرة، وتنعقد إرادة، وتتكون جماعة ويبتدئ تاريخ جديد. كل هذا لا يتم في الفضاء الذي لا يعوق الحركة، بل يتم عبر العوائق النفسية والذهنية والاجتماعية بما فيها من أنانيات وعادات. ويتم بالإقناع وبالقوة، ويتم بالصبر والثبات في الزمن والخطى.

نعم سيدي! لكن تعال نضع أصبعنا على مكمن من مكامن الداء العضال في تكويننا النفسي الفكري، بل في تكوين كل مجتمع ضعيف منهزم. هذا المظهر المرضي هو انتظار القائد الملهم. ذلك الانتظار الذي عاشت عليه الأمة وتعيش، فيبرر ذلك الانتظار الخمول. ما لنا وللسعي والتعب ما دام المصير مرهونا بظهور القائد البطل! إنها خرافية خطيرة معششة مثبطة.

في مجتمع مثل هذا يظهر رجل قوي يلهب حماس الجماهير، لكنه يتحرك بنفس البناء النفسي الذي ورثه من مجتمعه. لم يتغير هو في جوهره، لم يتجوهر على حقيقة منافية لأنانية مجتمعه المقيت وعاداته. وقد يكون مع هذا الرجل القوي أفكار لا تترجم المثل الأعلى الكامن في (المخزون النفسي) للجماهير ترجمة صادقة. وقد

تكون له إرادة ثورية، ومعه جماعة ثورية، مع مثل هذه القيادة تبتدئ حلقة من حلقات الصراع الحماسي ولا يبتدئ تاريخ. كان جمال عبد الناصر ذلك القائد الذي لوح بطموحات الاشتراكية لشعب أكلته الطبقية. لوح بطموحات التحرر من الاستعمار في بلاد محتلة، لوح بوحدة وعالمية لشعوب مقهورة محصورة. لكنه لم يرب أمة ولا بدأ تاريخا. وإن الناصريين اليوم على الساحة يمثلون جناحا مرموقا من أجنحة القومية العلمانية، وإن لهم الحق أن يسخروا من الذهنية الخرافية التي تجعل الأفواه مفتوحة إلى الهواء في انتظار صلاح الدين الجديد المنقذ. لكنهم إن سخروا من خرافية الشعب الذي يتذكر بطولة صلاحنا وصالحنا الذي حرر القدس بعد إعداد دام أربعين سنة فالأحق بالسخرية «بطل» انهزم في ستة أيام. وليذكروا بكاء الشعب في الشوارع عندما استقال البطل المهزوم. ذلك اليُتم الذي تجلى في شهيق ونواح الجماهير في الشوارع هو معيار الرجولة التي ارتفع إليها الشعب، ومعيار التربية التي تلقاها الشعب في ميادين الخطب وعلى أمواج الأثير. اهتزاز وارتجاج.

كان إخواننا الشيعة أكثر المسلمين «انتظارا» للإمام المهدي. نحن نعتقد بظهوره عليه السلام في آخر الزمان. معنا لذلك أحاديث ثابتة، وإن كان اختلافنا مع إخواننا الشيعة في تعيين الشخص موجودا. كان إذن «الانتظار» عائقا نفسيا ثقيلا عن كل تحرك. فمن أهم خدمات الإمام الخميني للقضية الإسلامية أن أزاح هذا العائق، ووضع «الانتظار» في موضعه التاريخي، أي في مكان ما على خط امتداد المستقبل الذي يعلمه اللّه وحده، بحيث يكون «الانتظار»

حافزا للعمل لا معوقا. يقول الإمام الخميني: «واليوم في عهد الغيبة (أي غيبة الإمام المهدي) لا يوجد نص على شخص معين يدير شؤون الدولة. فما هو الرأي؟ هل نترك أحكام الإسلام معطلة؟ أم نرغب بأنفسنا عن الإسلام؟ أم نقول: إن الإسلام جاء ليحكم الناس قرنين من الزمان فحسب ليهملهم بعد ذلك؟ أو نقول: إن الإسلام قد أهمل تنظيم الدولة؟ ونحن نعلم أن عدم وجود الحكومة يعني ضياع ثغور المسلمين وانتهاكها! ويعني تخاذلنا عن حقنا وعن أرضنا، وهل يسمح بذلك في ديننا؟ أليست الحكومة ضرورة من ضرورات الحياة؟»[1].

لطول ما سطا الحكم الفردي على المسلمين، ولطول ما انتصب الجبابرة أمام عينيه، ترسخ في الضمير الجماعي وفي الذهنية الجماعية أن الفرد هو منبع القوة. شهد لهذا الهاجس سياط الجلاوزة، ونطع قطع الرقاب، وبطش الجبارين الصغار خدمة للاستبداد وأعوانه.

القرون الطويلة من هذه التربية السلبية المنكوسة أنست مكان الخلافة، وحرمة الخليفة، وهيبة النائب عن ذلك الرمز المفدى بالمُهج والأرواح الرسول الكريم على اللّه عز وجل، الساكن حبه في قلوب المؤمنين مع حب اللّه تعالى.

الملك الصالح نور الدين بن زنكي ما بلغ به صلاحه مرتبة النيابة والخلافة، وإن كان «الخليفة» العباسي الذي يحمل اللقب في قصور بغداد دونه رجولة وصلاحا بما لا يقاس. ومن هم هؤلاء السجناء

(1) كتاب «الحكومة الإسلامية»، ص: 48.

الضعاف معاصروه من بني العباس: المقتفي والمستنجد ومن بعدهما المستضيء والناصر؟

ولا كان الملك الصالح كالملوك الجبابرة أصحاب السطوة كالسلاجقة محتكري السلطة الحقيقية في عصره.

كان واحدا من صالحي الأمة المحافظين على أمانة الإيمان الشاهدين بالقسط. لم يكن ميدانه ميدان الدعاة والعلماء والمرشدين الذين يزخر بهم تاريخنا، وإلى جهودهم الفردية المبددة يرجع الفضل في رعاية الحقل وتربية البذور الصالحة، وأقربهم عهدا بذلك التاريخ الإمام الغزالي رحمه اللّه والشيخ الإمام عبد القادر الجيلاني قدس الله سره. وكان الجو العلمي الإيماني الذي استنشقه نور الدين في يفاعته وشبابه جوا غزاليا. كان ميدان نور الدين ساحة الجهاد التي كان ينوي دخولها، فهيأ لها الأسباب ورتب أسباب القوة، فشاء الله أن تستفيد الأمة من تأسيسه على يد خلفه من بعده صلاح الدين الأيوبي رحمهم الله جميعا وألحقنا بهم مسلمين.

تحرير القدس

دام الوجود الصليبي في بلاد الإسلام ثلاثا وثمانين سنة بعد تحرير القدس سنة 1187 ميلادية. كانت حصيلة الحروب الصليبية الثمانية الفشل الكامل والارتداد، لكن غُصّة القدس كانت أَمَرَّ ما تجرعه الصليبيون؛ لأن تحريرها من يد «الوثنيين» المسلمين كان الشعار الذي رفعوه منذ الانطلاقة الأولى. في هذا القرن العشرين من تاريخ النصارى، في منتصف سنة 1948، أعلن اليهود دولتهم في فلسطين، واستولوا على ما كان فاتهم من أجزاء المدينة القدس سنة 1967.

كان المسلمون يوم احتل الفرسان الصليبيون القدس في مرحلة من مراحل التفتت التاريخي للأمة. وقد مضى على ذلك العهد اليوم قريبا من تسعة قرون استمر فيها التفتت. كانت الحقبة الثانية من العهد العباسي أواخر القرن الخامس الهجري انحسارا سريعا. لكن الشخصية الإسلامية كانت لم تنمسخ يومئذ، ولا منع تعدد الإمارات وتجزئة دار إسلام وصراعات المذاهب من بقاء وجود سياسي ثقافي ديني له السيادة داخل سياج وحدوي ولو صوري هو «الخلافة». أما اليوم فقضية تحرير القدس تنطرح على هذه الأجيال من المسلمين والتجزئة التي أصابت بلاد المسلمين كانت ولا تزال قطيعة، والصلة بالدين أصبحت مسألة فردية، تدفع إلى هذه العلمانية كل الأنظمة الحاكمة، باستثناء تلك التي تتملق الشعوب الإسلامية البادئة في

الاستيقاظ بقطع أيدي السراق الصغار زعما أن ذاك هو تطبيق الشريعة.

تجزئة هذا العصر لدار الإسلام تقارن بتلك التجزئة الأولى، إذ كانت تلك مذهبية أو استيلاء عسكريا داخل الإسلام، وهذه تحملها إيديولوجية قومية تسعى لطرد الدين من المجال السياسي. لم يكن يومئذ أحد يتصور أن يستند الحكم والقانون والحياة الاقتصادية والعامة على شيء غير الإسلام مهما كان المذهب ومهما كان فساد الحكام وبطشهم. لذلك كان التوحيد الذي بدأه نور الدين ومن بعده صلاح الدين رحمهما اللّه لا يجد عائقا إلا مقاومة الأمير المستولي بالسيف. فكان السيف يقارع السيف، وكانت «الدبلوماسية» النورية والصلاحية تمهد الطريق، وتُروّض الإمارات المحلية، فإذا الأمة واحدة تسمع نداء الجهاد فتتجه أنظارها للعدو المغير، وتنسى لحظة الخلافات المذهبية. أما في عصرنا فمحاولة التوحيد الناصرية اعتمدت الدعوة القومية الصرفة مع السكوت التام عن الإسلام إلا في الخطب الحماسية، عند التعرض لأمجاد التراث القومي.

نجاح الترميم النوري الصلاحي تمثل في طرد الصليبيين من القدس بعد إعداد طويل، وفشل التوحيد الناصري تمثل فيما يسميه القوميون بخجل واستخفاء بالنكسة. محك التاريخ، ومقارنة التاريخ، يبرزان أن معالجة المجاهدين الأولين كانت معالجة ناجحة، أعطت نتائج، نتائج مؤقتة كما سنرى قريبا إن شاء اللّه. لكنها نتائج عملية: الأرض تحررت. أما معالجة المناضلين الاشتراكيين فدلت نتائجها

العسكرية والسياسية والاقتصادية على أنها معالجة فاشلة، بل هي سلبية تزيد الموقف حراجة وترديا.

إننا إذ نستعرض الترميم الجهادي لا نقصد أن نتخذه نموذجا، ولا يمكن، ولا يكفي. فإن التفتت الحالي، وضخامة وسائل العدو الصليبي الذي اتخذ اليهود حلفاء يحاربنا بهم، بل يحاربوننا به، وقوة تماسك ذلك المجتمع المعادي، لا يكفي معها توحيد ترميمي كما كان ذلك ناجعا في إبانه، يوم كان العدو في درجة منحطة حضاريا، وكانت الوسائل العسكرية والاقتصادية متكافئة، وكانت مخترعات العقول لا تجعل من أحد الفريقين لحما على وضم، لا يصنع سلاحا، ولا يطور فكرة، ولا يحسن حتى استعمال ما ينتجه الآخر. هذا بالإضافة إلى تفاوت الحافز القتالي حتى الأمس القريب قبل أن يبرز المقاتل المسلم الفدائي فتتهاوى أسطورة البطل الصهيوني الذي لا يغلب.

لا يكفي لمواجهة التحديات المعاصرة والمستقبلية إلا إعادة بناء الأمة ابتداء من تربية الفرد المؤمن الذي نذر صلاته ونسكه ومحياه ومماته للّه رب العالمين لا شريك له. ابتداء من التربية يجب أن ننطلق، ثم نعيد التفكير في كل جزئية في حياتنا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، نعرضها على المنهاج النبوي، ونصانع الواقع، ونصبر على طول الإعداد، حتى تتوج جهودنا إن شاء اللّه بتوحيد الأمة. لا تعوز بحمد اللّه البذور الصالحة، وفي رجال الدعوة تلتقي آمال الأمة بعد خيبة تلك الآمال في قوم غابرين.

في عهد ذلك الترميم كان رجال العلم والتقوى والدعوة يعمرون المساجد بالحلقات العلمية ويفتحون بيوتهم للناس، وكانت المنافسة المذهبية تغيم ذلك الجو، شيعة يقاومون سنة، حنابلة يتظاهرون ضد شافعية، قضايا خلافية تتطور إلى مواجهة في الشوارع.

وكان «الخليفة» العباسي الجالس على الأريكة الرمزية ليس له من الأمر إلا الخطبة يذكر فيها اسمه، وإلا تعيين الخطباء والقضاة. وظيفة الدعوة كانت غائبة تماماً من أفق أولئك المساكين كما كانت غائبة عن يدهم السلطة الفعلية. كانت الدعوة منفصلة عمليا عن الدولة. لكن ذلك الانفصال لا يقارن بحال من الأحوال بالانفصال العلماني كما نشأ في أحضان أوروبا من محاربة فلاسفة أوروبا للكنيسة. بل على عكس ذلك كان «الخلفاء» والسلاطين والأمراء يتنافسون في تقريب العلماء البارزين، ويتنافسون في بناء المدارس ووقف الأوقاف. كانوا يفعلون ذلك فينالون به الذكر الحسن عند الأمة. ولم يكن في ذلك العهد، لم يبق في ذلك العهد، أي تميُّزٌ بين المال العام والخاص. فما كان من واجب الدولة، وهو دعم العلماء وبناء المدارس، أصبح شأناً خاصا متروكا لأريحية مالكي البلاد والعباد.

كان المقتفي أول «خليفة» عباسي خرج نوعا ما من هيمنة السلطان المستولي السلجوقي منذ استبداد بني بويه في بغداد. قرب إليه واحدا من العلماء الشافعية البارزين هو ابن هبيرة واستوزره. فكان ابن هبيرة يحاول الاستناد إلى مكانته من المقتفي ليقوم بترميم الدعوة موازيا حركة نور الدين الذي كان يحاول ترميم كيان سياسي.

كان ابن هبيرة يشجع نور الدين، وكان له ركيزة عند المقتفي ثم عند المستنجد. واجتهد الوزير الصالح، من وسط تلك القصور وفي وجه عوامل التفتت المذهبية، أن يقرب بين المذاهب ويرأب الصدع بين أهل السنة. فألف كتابه الشهير «الإفصاح» يفسر فيه صحيحي البخاري ومسلم وينشره لتقوية جانب السنة.

وعلى خط ابن هبيرة في دعم السنة سار نور الدين منذ توليه إمارة حلب بعد مقتل والده الأمير زنكي سنة 541 هجرية، 1146 ميلادية. لم تمض سنتان على ولايته حتى أضاف دمشق إلى ولايته، وأسس بها مدرسته الكبيرة «النورية». كان رحمه اللّه مثالاً للتقوى حريصا على إقامة العدل. وكان بطلا في الحروب الصليبية المتتالية.

حصلت بيده إمارتان: حلب ودمشق. وطد فيهما حكمه، وأقام فيهما مرافق مثل دار العدل، ودور المارستانات، وقوى الجيش، وأصلح المال. وفي سنة 559 بعث شيركوه عم صلاح الدين، وكان من أعيان جنده، إلى مصر لغزو الدولة العبيدية. تلا ذلك الغزو بعثتان أخريان مكنتا شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبي من التمكن في مصر سنة 564.

كانت الدولة العبيدية تلفظ أنفاسها الأخيرة بعد أن ازدادت عزلة الأسرة المتسلطة التي لم تستطع يوما أن تفرض مذهبها على الشعب. كان شاور وزير آخر «الخلفاء» العبيديين المستضيء، هو رأس الدولة الحقيقي. فلما قتله شريكوه وتلقب بلقب الوزارة كانت الطريق مفتوحة لصلاح الدين، إذ مات عمه بعد شهرين من ذلك،

فورث صلاح الدين الوزارة وقيادة الجيش النوري، وما لبث أن أغلق القصور على أهلها وأعاد الخطبة للخليفة العباسي.

في سبع سنوات أنجز صلاح الدين، وقد استقل بالأمر بعد وفاة نور الدين، هذه الإنجازات الضخمة: وحد مصر والشام والحجاز وطرفا صالحا من العراق، وجهز جيشا مدربا، وجمع أموالا طائلة أنفقها على الجهاد (ومات لا يملك ثمن تجهيز جنازته رحمه اللّه)، وحاصر المعاقل الصليبية معقلا بعد الآخر يكسر أجنحة المملكة النصرانية في القدس، وأخيراً حرر الأرض المقدسة، وحمل الصليبيين من أخبار كرمه، وعفته عن الدماء، وشهامته، وشجاعة جنده ما اعترف به الصليبيون ولا يزالون رغم تعنتهم وحقدهم الدفين.

تحررت القدس في «خلافة» الناصر العباسي، وكان الناصر حريصا على استنقاذ السلطة من يد السلاجقة. حاول أن يعيد «للخلافة» العباسية أبهتها وقاعدتها، لكنه لم يهتد إلا لاختراع نظام «مليشيات» جديد هو نظام الفتوة الذي يتميز أعضاؤه بلبس سراويل خاصة وباللعب بالبندق.

كان صلاح الدين رحمه اللّه مرمما موفقا، بنى على أسس ابن هبيرة ونور الدين رحمهما اللّه. لم يكن سوى ذلك، إذ مع وفاته تدهور ملك بني أيوب وورثته، وازدادت «الخلافة» العباسية تدهورا. فلم تمض إلا ثمانون سنة حتى دخل التتار بغداد وظهر التفتت على حقيقته. أين ذلك الصحابي الفدائي الذي كان الموت في سبيل اللّه أعز مطلب لديه، أين ذلك الفارس الذي كان يخترق

صفوف المستندين على أسوار القسطنطينية؟ ابحث عن أسرار تربيته في أعماق الإيمان باللّه ورسوله. أما المسلمون الذين غزاهم التتار وكسر بيضتهم فهم أشبه بغثاء السيل الذي تحدث عنه رسول اللّه ﷺ وشبه به المسلمين في مستقبل تفتتهم، ووهن الإيمان في قلوبهم وكراهيتهم الموت، وحبهم الحياة، أي حياة.

يروي ابن الأثير كيف دخلت امرأة تتارية مقنعة على جماعة فأخذت تقتلهم واحدا بعد واحد، لا يقاومون. وكيف أمسك جندي تتاري بمسلم فقال له: ابق هنا حتى آتي بسكين، فذهب ورجع بسكينه ليجد الخروف ينتظر الذبح.

الإلحاد المفلسف

أمر آخر جعل الترميم في ذلك ممكنا وسهلا نسبيا وكافيا للهدف المقصود، هو ضآلة الإلحاد بين المسلمين يومذاك. كانت واجهة الدعوة رغم نزاعاتها الداخلية سدا قويا في وجه الإلحاد، ومعظم هموم العلماء محاربة البدعة. ثم إن الممالك التي وجدها صلاح الدين كانت مجانبة للبلاد الأكثر نزاعا مذهبيا وهي بلاد العراقَيْن. فلم يعد هناك، بعد سقوط السلطان الفاطمي في مصر، إلا المهمات العسكرية تكفلت بإزاحة حواجز غير ذات بال.

الإلحاد الفلسفي اليوم منغرز في جسم الأمة، ضالعة فيه طوائف من المثقفين المحترمين في المجتمع بوجه أو بآخر. وهو يومئذ كان ظاهرة هامشية تماما مقموعة مرذولة.

يقول الإمام الغزالي في كتاب «تهافت الفلاسفة» يصف ضآلة الفلاسفة الملحدين في عصره، ولا نظن أنه وقع تطور في الموضوع قرنا من الزمان بعده: «ولا مستند لكفرهم غير تقليد سماعي كتقليد اليهود والنصارى. إذ جرى على غير دين الإسلام نشؤهم وأولادهم، وعليه درج آباؤهم وأجدادهم، وغير بحث نظري صادر عن التستر بأذيال الشبه الصارف عن صوب الصواب، والانخداع بالخيالات المزخرفة كلامع السراب».

كانت تلك الفلسفة إذن ستارا سطحيا تختفي وراءه وراثة وتربية نشأ عليها أولائك، كانت جرثومة من البيئة المحلية نفسها. أما

الإلحاد المفلسف في عصرنا فجراثيمه جاءت لأرض بكر غير أرضها التي نشأت فيها، فهي فيها أشد فتكا. ويصف الإمام الغزالي رحمه الله الإعجاب بأمة الكفر وتقليدهم فنجد نفس ما نعهده عند أهل زماننا. قال: «وإنما مصدر كفرهم سماعهم بأسماء هائلة كسقراط وبقراط وأفلاطون وأرسطاطاليس وأمثالهم، وإطناب طوائف من متبعيهم، وضلالهم في وصف عقولهم، وحسن أصولهم، ودقة علومهم الهندسية والمنطقية والطبيعية والإلهية». هنا يضع الغزالي أصبعه على سبب مهم من أسباب الإلحاد يومئذ في كل طائفة متفلسفة. لم يكونوا يومئذ يميزون بين الفلسفة والعلوم، فكانت صحة اختراعات تلك العقول الكبيرة في الطبيعيات والرياضيات دليلا في نظر الأتباع المنبهرين بصحة مقالاتها في الإلهيات. واليوم في عصرنا لا يزال نفس البرهان معتمدا رغم ظهور التخصص العلمي في مجالات العلوم، وكل ما جاء به العقل الغربي حقائق لا جدال فيها: التخمينات الفلسفية سواء في ذلك والكشف العلمي. كان ملاحدة ذلك الزمان ضحية للانخداع «القبل علمي» كما هم ضحية علماء الإبستمولوجيا المعاصرين من بني جلدتنا. قال الغزالي يقلل عدد أولئك ويحقر من شأنهم: «وإنه لم يذهب إلى إنكارهم (أي الأنبياء) إلا شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة والآراء المعكوسة الذين لا يؤبه لهم، ولا يعبأ بهم فيما بين النظار، لا يعدون إلا في جملة الشياطين الأشرار، وغمار الأغبياء والأغمار».

لم يكن للعلمانية والإلحادية يومئذ سلطان على وجه الأرض ولم يكن للملاحدة بين ظهراني المسلمين تيار علمي ينتمون إليه

ويكتسبون منه تأييدا كما يكسب التأييد اليوم تلامذة الفكر الليبرالي العلماني من نظرائهم في العالم القوي، وكما يكسب تلامذة الإلحاد الماركسي من أصحابهم.

العلمانية والإلحاد اليوم مذهب له سوقه العالمية الرائجة، وله سنده السياسي الخارجي، وله وجوده المنظم في بلاد المسلمين، وله تغلغل خطير في كليات التعليم ومدارسه. تقليد الأسماء اللامعة، وتبني الثقافة العلمانية المتولدة تاريخيا من قتال العقل السليم للخرافية النصرانية كانا ولا يزالان المدخل الذي سلكه المضلَّلون المعاصرون حتى انضموا إلى «جملة الشياطين الأشرار». لكنهم بعد الدخول تمكنوا في الأرض، وضربوا بالجذور، وكونوا الخلايا الحية النشيطة. فلا هم «شرذمة يسيرة من ذوي العقول المنكوسة» كما كان أولئك، ولا يفيد في إعادة توجيه آرائهم المعكوسة مجرد الاستدلال البرهاني على غرار ما ظن صاحب «التهافت» حين ألف كتابه: «ليكف عن غلوائه من يظن أن التجمل بالفكر تقليدا يدل على حسن رأيه، ويشعر بفطنته وذكائه».

الردة والزندقة

التجمل بالكفر تقليدا، أو إظهار الكفر اقتناعا، يطلق عليه بلسان الشرع اسم «ردة» أما حين يصبح الإلحاد فلسفة، ودعوة مفتوحة، ونشاطا منظما، فتلك الزندقة. ولكل من الردة والزندقة أحكام معروفة. وإننا لنأمل أن «يكف عن غلوائهم» هؤلاء وأولئك ويدخلون إلى الحوار قبل أن تصبح الأحكام الشرعية آخر الدواء. فالدولة الإسلامية قائمة إن شاء الله في دار الإسلام، هذا ما أصبح يتوقعه الخاص والعام. وإن استباق بعض العلمانيين إلى رفع شعارات الإسلام بن يدي الاحتمالات التاريخية التي يجيدون قراءتها في الأفق السياسي لدليل على أن الغباوة تتجزأ. ونربأ بأصحاب العقول العلمانية أن يختاروا أسلوب النفاق كما فعل جماعة «مجاهدي خلق» في إيران. فكما أخفقوا هنالك فهم مخفقون أنى ظهروا إن شاء الله.

خليق بهم أن يبحثوا عن حوار يطلبون من خلاله معرفة الحق، وقد يجدون التقصير من جانب جند الله قليلي الخبرة بالمذاهب الفلسفية والمناهج التاريخية، فلا يمنعهم ذلك من التجرد لحظة لمراجعة ما معهم من زاد فلسفي ونقد موقفهم الذي سيجدون عامل «التجمل بالكفر» يشكل عمدة من عمده. إنهم يحبون النقد الذاتي كما يزعمون ويلهجون به، فيهون عليهم نقد حاضرهم إن تجردوا من الحزبيات ليتابعوا التوالد التاريخي للزندقة المعاصرة.

كان الإلحاد المفلسف في القرن الثامن عشر الميلادي بأوروبا، فلاسفة فرنسا يقودون الحركة، إلحادا سياسيا في جوهره. كان «الفيلسوف» فولتر والموسوعي ديدرو وأصحابه يناضلون ضد الكنيسة التي تسند الاستبداد الملكي وتؤيد مطالبته ودعواه في «الحق الإلهي» في الحكم. ناضلوا ضد الكنيسة وضد الدين، وهم لا يعرفون دينا غير دين الكنيسة، دفاعا عن الحرية ومدافعة للطغيان. يقول البارون دولباخ في كتابه «النصرانية من غير ستار» ما نصه: «كل ما ذكرناه حتى الآن يثبت بأجلى صورة أن الدين النصراني معاد للسياسة السليمة ولسعادة الأمم». والدين عنده إنما هو اختراع ابتكره الطغاة لتبرير طغيانهم وتركيزه. يقول: «الدين هو فن إسكار الناس بالحماسة لمنعهم من الاهتمام بالمصائب التي ينزلها بهم أولئك الذين يحكمونهم»[1].

عبارة ماركس (أفيون الشعوب) تلخص فكر القرن الذي قبله. يقول ميليه: (الجهل والخوف، هذان هما محورا كل دين (...) لقد كان هدف المشرعين الأوائل أن يسيطروا على الشعوب، فكان أيسر سبلهم إلى ذلك أن يخيفوهم وأن يمنعوهم من إعمال العقل (...) وكلما ازداد المرء إمعانا في دراسة النواميس والمبادئ الدينية يزداد قناعة بأن هدفها الوحيد مصلحة الطغاة والرهبان)[2]. هذا القران بين الحكام ورجال الدين، بين كهنة الكنيسة وطغاة القياصرة هو ما

(1) نقلا عن كتاب «ماركسية القرن العشرين»، ص: 143. كتبه رجاء جارودي قبل إسلامه، دار الآداب، بيروت.

(2) نفس المصدر، نفس الصفحة.

سميناه في أول هذا الفصل «بالوصال الأنكد» الذي أدى إلى «الفصام النكد» بين الدولة والدين.

الماركسيون يعتبرون هذا الفصام هو الجواب الوحيد لذلك الوصال، ويعتبرون هذا الإلحاد السياسي الفلسفي تقدمية فائقة. يقول من كان يدعى روجي كارودي قبل إسلامه، يوم كان في عز ماركسيته قبل أكثر من عشرين سنة: «وقد لعب الإلحاد دورا أساسيا رفيع التقدمية في تحطيم العلاقات الإقطاعية ونظام الملكية المطلقة. وذلك بكشفه استغلال النظام القديم للدين استغلالا سياسيا واجتماعيا. وفي هذا سر عظمة الإيديولوجية العتيدة. أما قصورها في نظر الخبير الماركسي فهو في أنها لم تر في الدين إلا اختراعا معتسفا دون أن تتساءل ما هي الحاجات الإنسانية التي جاء هذا الاختراع تلبية لها، وما هي القيم الإنسانية التي أبدعت على هذه الصورة الدينية»[1].

كان كارودي يوم كتب كتابه ماركسيا نصرانيا معا، متمزقا بين غضبه للحق الذي يجعله يصفق لإسقاط الطغيان وبين تعطشه الروحي الذي كان يجد في النصرانية له منتجعا. هذا التهمم الفطري الذي يجرد الإنسان الجاد في الحياة من الاعتبارات القشرية ليطلب الحق بحركة من أعماقه هو ما نأمل أن يستيقظ في نفوس من نحاورهم في هذا الكتاب من موقع شعورنا بأهمية ما يمثلونه من كسب ثمين لأمتهم إن صبروا على الطلب وصدقوا فيه كما صدق كارودي. نرجو.

(1) «ماركسية القرن العشرين»، م س، ص: 144.

إن نقد «الوصال الأنكد» بين علماء القصور والطغاة المستبدين في تاريخنا الماضي والحاضر من آكد واجبات كل مخلص لدينه، فقيه فيه، لا ننتقد ذلك القران الكئيب ابتغاء مرضاة فيلسوف تائه، أو متحزب نريد استمالته، لكننا نفعل إرضاء للحق، وتحريرا لذهنية المسلمين من ثقل كان يعوق عن التفكير، ولطاقتهم من قيد كان يمنع من الفاعلية التاريخية لإرجاع الحق إلى نصابه. فإن كنا نبهنا الفيلسوف أو المتحزب، فتلك وظيفة ضمنية من وظائف الدعوة. والله المستعان.

الإلحاد العلمي

هم يقولون عكس ما نقول: فتحرير الإنسان عندهم لا يصح إلا عبر تحريره من الدين، والثقل الذي يعوق عن التفكير هو الدين، والقيد الذي يمسك طاقات المجتمع ويمنعها من الانطلاق والإنتاج هو الدين، فإزالة الدين من طريق الإنسانية وتنحيته والقضاء عليه ضرورة سياسية علمية.

ورث القرن التاسع عشر في أوروبا الإلحاد من «فلاسفة» القرن الثامن عشر، لكنهم نوعوا الحيثيات التي من أجلها حاربوا الدين. فبينما كان الداعي إلى الإلحاد عند أمثال فولتير وديدرو سياسيا قبل كل اعتبار، وكان عندئذ يسمى فيلسوفا كل مثقف يهتم بالسياسة والتحرر، نجد في القرن التالي فلاسفة يبنون الإلحاد على أسس فكرية بعد أن تقلص نفوذ الكنيسة واضمحل تأثير الإكليروس، يعتبرون الدين تفسيرا للكون والإنسان سابقا للعمل، بدائيا. وكانوا ينظرون في طقوس الكنيسة وجوهر عقيدتها لا في وظيفتها السياسية. فيجدون في تلك العقيدة والطقوس ما يُعطي تهمتهم للدين عامة معقوليته. فمن خلال عقيدة التثليث المعقدة المتحدية لكل عقلانية، ومن خلال الخمر التي تستحيل دما للمخلِّص، ومن خلال الخبز الذي يصبح بعد قراءة الطلاسم جسدا للمخلِّص، يعممون حكمهم على كل دين.

وقالت الفلسفة في القرن الفائت كلمتها في الدين، فرسخت، وأصبحت مسلمة عند ملاحدة هذا القرن وزنادقته من بني جلدتنا. لا مكان عندهم للتأني وفرز الحق من الباطل، لا مكان لعرض العقيدة الإسلامية ومقارنتها بعقائد الكهنوت النصراني. إنهم سحبوا على الإسلام حكم سلفهم على النصرانية وعلى كل دين. ثم إنك إن جئتهم من ناحية العقيدة والجوهر فلن تجد استعدادا للحوار، لأن الإسلام الرسمي يوظف الإسلام في تخدير الأمة، والبرهان العملي السياسي الذي يتمكنون من التقاطه يومي ماثل أمام أعينهم يثبت وجود هذا التخدير. وهذا يغني عن كل نقاش في المبادئ المجردة. يكفي يوم واحد من إساءة أمثال «المارشال-الإمام» النميري للإسلام باسم الإسلام لتزويدهم بالأدلة الكافية لإسكاتك أنت المتبرئ من الدجاجلة، المكبل بما جنت وتجني أيدي بعض المعممين قرناء النكاد وعاظ السلاطين.

سقط نظام النميري السيئ الذكر منذ شهر عند هذه الكتابة. سقط نظامه والإخوان المسلمون الذين سايروه فترة في السجون. أيكفي خلافهم له آخر الأمر ليثبت لكل متهم للدين بصفة عامة ومبدئية وسياسية وفلسفية أن اقترابهم منه إنما كان تهيأ لخنقه كما صرح هو بنفسه عندما أودعهم السجن؟ كيف وأعداء الإسلام لا يتركون شاذة ولا فادة من حركاتنا وسكناتنا وإصاباتنا وأخطائنا إلا كيفوها ليعززوا هجمتهم على الدين. ولا يعنيهم في شيء أي دين هو، ولا أصله وجوهره.

صنف أوغست كونت الفيلسوف الفرنسي الوضعي أوضاع المجتمع البشري الثلاثة المتعاقبة كما يلي: الفترة اللاهوتية ثم الفترة الميتافيزيقية ثم الفترة الوضعية. في الفترة الأولى كان البشر يسعون إلى تفسير الكون والإنسان بتقدير غاية للوجود تقديرا نشأ عنه الاعتقاد في الآلهة اعتقادا عفويا. ثم في الفترة الثانية بحث البشر عن هذه الغاية بالتفكير الفلسفي.

وفي المرحلة الثالثة تحرر الإنسان من اللاهوت العفوي ومن الميتافيزيقا الفلسفية وحكم العقل الوضعي. فلا مكان للدين في عالم العقلية العلمية التي لا تؤمن إلا بما ترى وتبلغه الحواس، ولا تهتم إلا بالعلاقات بين الأشياء وتعريفها وتحديد وظائفها الثابتة بالتجربة.

الدين... عاهة وعيب

في مسيرة نقد الدين، أي في مسيرة العلمانية والإلحاد والزندقة، بدأت المناوشات عاطفية غضبا على سلوك الكنيسة وقادتها، ثم استفحل الغضب وتسيَّس، فرفض القرن الثامن عشر ما سماه ماركس من بعد «أفيون الشعوب» ثم تمعلم النقد في القرن التاسع عشر فصنف الدين مع المخلفات البدائية التي تجاوزها البشر.

مع ماركس ظهر الإلحاد العصري المتطور، الإلحاد الثوري، كان مَن قبله مِن الفلاسفة، السياسيون والعلميون بالإضافة إلى «المتزينين بالكفر» تقليدا، كانوا يرفضون الدين بوصفه عائقا عن تحرر الإنسان، أو بوصفه مرحلة متجاوزة. وتلك هي الطريق السالكة إلى الوضعية المادية السائدة في هذا العصر. أما ماركس فيتعمق في فلسفة الدين ليكشف عن جذور الحاجة المرضية في زعمه التي تدفع الإنسان للتدين. إنه لا يكتفي برفض الدين الذي ليس إلا ظاهرة، بل يريد أن يؤكد حرية الإنسان في إبداع نفسه بنفسه، وفي هذا يقترب من الإلحاد الوجودي، وأن يؤكد إيجابية الإلحاد باعتباره خطوة نحو الاستقلال ونحو التخلي عن العاهة النفسية التي تتركب عليها ظاهرة الدين.

يحتفظ مارك «بمكتسبات» النقد السابق: فالدين خديعة اصطنعها المستبدون للسيطرة على الشعوب، وهو وهم تولد عن الجهل وبدائية التفكير ويضيف ماركس وشريكه إنجلس أن الدين انعكاس لشقاء الإنسان واحتجاج على هذا الشقاء.

والتحرير الإنساني الشامل عند ماركس إنما يتم بالقضاء على الطبقية. ففي ذلك المجتمع اللاطبقي الذي تبشر به الماركسية ينحل التناقض بين «الوجود الفردي الحسي للإنسان وبين وجوده النوعي». بمعنى أن الإنسان في ذلك المجتمع يتحرر من وجوده الواقعي المستلب ليصبح شخصا واعيا بانتمائه للنوع البشري متمتعا بكل ما حققته البشرية، مشاركا في الإبداع، متطلعا إلى ما لا نهاية له من القدرة على الإبداع. وعندئذ يختفي الدين باختفاء الحاجة إليه. ويصبح غير ذي موضوع بعد اضمحلال «القاع الإنساني» أي العاهة التي تدفع الإنسان في المجتمعات الطبقية للتدين.

يقول ماركس إن الإنسان الذي يعيش في مجتمع يسوده الاقتصاد البضاعي يبقى معزولا مستلبا لا تتاح له الفرصة ليشارك في حياة النوع البشري، لغياب الشفافية في العلاقات، ولتعرض البضاعة والتقويم البضاعي كحاجز يمنع الأفراد من الاستغناء والتمتع بالمكتسبات التاريخية للإنسانية. فأمام هذا الوضع المرَضي تنعكس في «قاع الإنسان» العاهة الاجتماعية على شكل تدين ذاتي هو في نفس الوقت تمرد على الأوضاع.

ولا يتردد ماركس وإنجلس والماركسيون في الاعتراف أن الدين في فترة ما، وفي ظروف تاريخية ما، يكون تقدميا. لذلك لا تجد صعوبة لدى «المتزينين بالكفر» من بني جلدتنا ليعترفوا بطيب خاطر أن الإسلام كان في وقته وثبة جبارة، ثورة تاريخية، ومجدا تراثيا. كل ذلك ليزدادوا في أنفسهم تيقنا أن المنظومة الإيديولوجية التي يدينون بها عقيدة راسخة كشفت قاع الأمر كله، ومنبت العاهة، ومولدها

في وجود الداء الكلي داء الطبقية. على أن المتحزبين اليساريين العاديين لا يدخلون في نقاش الإنسان الفردي والذاتي والنوعي كما يفسر ذلك ماركس. يكتفون بإلحاد مبسط بسيط تجمله عبارة «أفيون الشعوب».

إن الكنيسة الماركسية مضطربة العقيدة في شأن الإلحاد. كبراؤهم لم يتبعوا ماركس في تحليله القاعي. فهذا إنجلس يرد مباشرة على مقالة ماركس التي تفيد بأن المسيحية الأولى لم تكن ثورة للعبيد لأنها ظلت دينا للعبيد. يقول إنجلس بعد أن هاجم «وجهة النظر ذات العقلانية السطحية» التي تعتبر أن «كل الخرافات في سخافاتنا سواء» ما يلي: «المسيحية مرحلة جديدة حقا من مراحل التطور الديني، مدعوة لأن تصبح أحد العناصر الأكثر ثورية في تاريخ الفكر البشري»[1].

ويتناقض إنجلس مع شريكه في تحليل «القاع الإنساني» وميلاد الدين من التناقضات الطبقية والاقتصادية فيقول: «سيكون جعجعة فارغة أن نبحث عن أسباب اقتصادية لهذه التطورات الدينية الأولى»[2]. كلنا نعلم أن ما تطحنه رحى الفلسفات حول الدين إنما هو جعجعة فارغة، سواء كانت فلسفات سياسية أو وضعية أو ثورية. ما تطحنه حول دين النصرانية المحرف الخرافي ثم تعمم. لكن

(1) نقلا عن كتاب «ماركسية القرن العشرين»، ص: 157. كتبه رجاء جارودي قبل إسلامه، دار الآداب، بيروت.

(2) المصدر السابق، ص: 162.

ليس من المتوقع أن تجد مثل هذا التقويم عند إنجلس الخل الوفي والشريك الند. ثغرة من الثغرات التي لا تحصى في ذلك الصرح.

لا ولا من المتوقع أن تجد عند الشريك الثالث، قل التلميذ النابغ، لينين فكرة مناقضة لفكرة الإلحاد القاعي الماركسي. ما كان يراه الأستاذ عاهة وعيبا وظاهرة تعفنية، يراه التلميذ النابغ المنفذ للنظريات الحالمة عنصر حياة وزهرة يانعة من زهرات المعرفة البشرية! كتب كارودي ما يلي: «إننا نقول، كما فعل لينين، إن النظرة الدينية ليست بلا سند من المعرفة ذاتها، وإن الدين ـ كما قال لينين في «الدفاتر الفلسفية»: زهرة غير مثمرة، ولكنه زهرة نبتتت على الشجرة الحية للمعرفة الإنسانية الحية»[1].

(1) «ماركسية القرن العشرين»، م س، ص: 165.

النصارى العرب

ترددت عند كتابة هذا العنوان بين صيغة التعريف كما كتبت وبين صيغة: «نصارى العرب». الصيغة الأولى تثبت لهؤلاء النصارى ذاتية وأصالة، والثانية تأتي بهم تبعا إضافيا. من يعتبر فاعلية هذه القلة القليلة في جسم الأمة وحيويتها وأثرها البالغ لا يكتب الصيغة الإضافية، وربما كان الأليق أن نتحدث عن «عرب النصارى» إشارة إلى مكان النصارى، يقودون كثيرا من العرب بالزمام، ثقافيا وحزبيا وإعلاميا.

يمثل النصارى العرب أقل من خمسة في المئة بالنسبة للعرب، أكثر قليلا من خمسة في الألف للأمة الإسلامية. ورغم ضآلتهم العددية فإن لهم الأثر البالغ في تكوين العرب المعاصرين الفكري، ومكان القيادة في التوجه القومي العربي بالأمس، وفي التمزق الطائفي الذي نبعت غائلته في الحرب الأهلية اللبنانية، وفي التآمر الماروني مع دولة اليهود.

يمتد تاريخ النصارى العرب في تاريخ الإسلام إلى نصارى نجران الذين وفدوا على رسول الله ﷺ، فأنزلهم بمسجده، وأكرم مثواهم، ودعاهم إلى الإسلام، وجادلهم بالتي هي أحسن لما أبوا الاستجابة، ودعاهم إلى المباهلة آخر الأمر فأبوا. ثم تصالحوا مع رسول الله ﷺ على الجزية، وعاشوا كما عاش كل أهل الذمة في كنف الدولة الإسلامية، بل في كنف المجتمع الإسلامي، قاسموه الحلو والمر.

لما شاخت الدولة العثمانية، وآن لأوروبا التي لفظت دين النصرانية دون أن تلفظ أحقاد الصليبية أَوَانَ الكرَّة، تصدت أوروبا «للرجل المريض» لتجهز عليه وتنهي أربعة قرون كان أثناءها العثمانيون يمثلون في عين أوروبا النصرانية الهول الإسلامي والخطر المحدق منذ فتحهم القسطنطينية سنة 1453 ميلادية.

كانت المواجهة بين أوروبا والمسلمين بقيادة الأتراك امتدادا مباشرا للمواجهة الدائمة، ومن أبرز فتراتها الحروب الصليبية المسماة هكذا. تحولت هذه الحرب بالسلاح الحديدي إلى حرب شاملة للإجهاز على الإمبراطورية العسكرية العثمانية، شوكة الإسلام لقرون طويلة، فكان النصارى العرب منذ أواسط القرن التاسع عشر الميلادي بعض فيالق الجيش النصراني. وتقلب النصارى العرب في «أدوار» على مسرح تاريخنا المعاصر. فكانوا السابقين إلى تثقيف العرب بالثقافة الغربية التي كانت ولا تزال تربطهم بها روابط القربى الحميمة، وكانوا «موقظي» العرب، و«خدام» اللغة العربية، والمبشرين باللبرالية، ورواد مدارس التنصير، ومؤسسي الحركة القومية العربية. وقبل ذلك كانوا أنصار الثورة العربية على الأتراك، وكانوا حملة الفكر الماركسي الأولين، وهم اليوم على رأس الدعوة المارونية الطائفية.

حول الأرض المقدسة، حول فلسطين المحتلة كيانات عربية هزيلة، قومية ووراثية عشائرية، لكن اليهود لا يطمئنون، وهم دولة طائفية، إلا إن قامت حول فلسطين دويلات طائفية موازية متحالفة خادمة ممتدة كالسرطان في جسم العرب والمسلمين.

كان خروج الصليبيين من أرض المسلمين سنة 1270. فلما دخل الفرنسيون إلى دمشق بعد الحرب العالمية الأولى، وقف القائد الفرنسي على قبر صلاح الدين الأيوبي رحمه الله وقال: «ها نحن عدنا يا صلاح الدين!». أولم تمض على عهد الملك الصالح سبعة قرون ونيف؟ ألم تنبذوا أثناءها النصرانية؟ ألم تدْفنوا الذكريات الصليبية ومرارة تلك الهزائم؟

كلا! فالعظمة العسكرية للإمبراطورية التركية شوكة الإسلام تنادي ضمائر أوروبا العسكرية بالثأر منها. والقدس الأرض والرمز قطب المطالبة، هدف الملاحقة الحثيثة. وها هم النصارى العرب يتخلون عن قضية العروبة بعد أن ساهموا في تمزيق المسلمين، وها هم يتحالفون مع اليهود، ويعود النصر إلى معسكر أهل الكتاب متجسدا في تركيز دولة اليهود.

إن النصارى العرب، من موارَنة في لبنان وسوريا، ومن أرثوذكس، ومن أقباط، ومن بروتستانت وكاثوليك أعطوا ثقتهم يوما للعرب المسلمين. وهم اليوم، بعد أن أصبحت لهم جاليات غنية في مهاجر الأمريكيتَيْن وفي سائر البقاع، يتخلون نهائيا عن ستار الإيديولوجيا العربية الذي أخفوا وراءه زمانا طموحهم الطائفي. تململ في مصر، وجيش مقاتل في لبنان، وخطوط مطالبة نصرانية عربية تنتسج شيئا فشيئا مع المخطط اليهودي الأمريكي.

كان النصارى العرب ولا يزالون أقلية ضئيلة العدد، عاشوا قرونا جسما غريبا كل الغربة في المجتمع المسلم. ووقع عليهم في فترات، منها ولا شك فترة الحُكم العثماني، ضيم وظلم كما وقع على العرب

المسلمين. وفي عهود انحطاط المسلمين الأخيرة شعر النصارى العرب أنهم أجانب في وسطهم بكل معنى الكلمة. فكان السبق إلى التعلم في المدن الكبرى والهجرة إلى أوروبا وأمريكا مسلكهم المبكر للخروج من الربقة التي ظل إخوانهم العرب المسلمون يعانون منها. ربقة اقتصادية وسياسية واجتماعية. أقلية زاد من شعورها أنها مهضومة الحقوق انتماء الأغلبية في المجتمع إلى دين الحاكم التركي، ففضلت العيش في بلاد الغربة مُقتَلَعَة الجذور على العيش في مهانة. وكان هذا خاصة نصيب نصارى لا ينتمون لعشائر قوية، ولا تحميهم أحلاف مثل الأحلاف القديمة والمعاصرة بين طوائف الجيل اللبناني مثلا.

لم يدخل النصارى العرب في ولاء لأية دولة من الدول التي تعاقبت على بلاد المسلمين، رغم ما كان لأفراد منهم من الوجاهة الرسمية والحظوة الاقتصادية والسياسية لدى البلاطات. كان منهم أثناء الحروب الصليبية جواسيس ومساعدون للعدو، وهذا أمر طبيعي ومنتظر. كان ولاؤهم الدائم للأسرة والقرية والطائفة. ولعل بعض حذاقهم وأذكيائهم المغربين المتشبعين بالفكر اللبرالي الغربي أو الاشتراكي الماركسي ظنوا ساعة أن الفكرة القومية بشير الخلاص، وأن الدولة القومية سفينة الخلاص.

عاشوا زمانا في مجتمع مغلق يشكلون شريحة اجتماعية منفصلة، لهم ذهنيتهم الخاصة، وعاداتهم، وثقافتهم المحلية المرتبطة بكنائسهم، ومواقفهم السياسية، وحصونهم في الجبل إذ كانوا موارنة، أو «انسجامهم» إذا كانوا أقباطا في القاهرة والصعيد.

فلما اتصلوا أواسط القرن الماضي بالفكر الغربي بواسطة مدارس التنصير توسموا ملامح مستقبل يضمن لهم الحرية ويخرجهم من مرتبة التبعية والغربة. جاءهم الفكر اللبرالي بمفهوم الحرية فتلقفوه بديلا مرجوا لمفهوم الذمية، جاءهم بوعد النجاح الاقتصادي المدني الذي يكافئ الجهد فأحبوه عوضا عن الحظ المحتوم لجهود محلية عقيمة، جاءهم بصورة متكاملة لحضارة متقدمة مخالفة ومنافسة لحضارة المسلمين الرائحة للأفول، فكان الإغراء عليهم أقوى منه على أبناء الأغلبية المسلمين الذين كان لهم في مجتمعهم المكان الأروح.

حمل إليهم الفكر اللبرالي، والماركسي من بعده، بذور التحرر من الدين، ومن العقائد الغيبية، وبذور التمرد العقلاني على كل موروث. ونبغ من النصارى العرب، من رهبانهم ومن عامتهم، صحافيون وناشرون وبحاثون عملوا على بث تلك الأفكار والترويج لها. فكانوا الرعيل الأول في ركب العلمانية.

اصطدموا أول الأمر بالفكر المسلم المحافظ المتخلف عنهم في الاطلاع على أفكار العصر. فكانت مقاومة شديدة، ما لبثت أن أسفرت عن فجوات وثغرات دخل منها الفكر العلماني شامخ الرأس يوم أقنع النصارى العرب بعض المسلمين العرب بوجاهة ما يدعون إليه، وتقدميته، وتحضره، وتفوقه.

الدين للآخرة فقط!

لا تكتمل الصورة عن العلمانية وحملتها الأولين النصارى العرب دون عرض مواز لحركة الإصلاح الإسلامية والنهضة الإسلامية على يد جمال الدين الأفغاني وتلامذته. ولن يقودنا ذلك العرض بعيداً عن مقاصد هذا الكتاب، وهو كتاب منهاج لا كتاب تاريخ.

نكتفي بالاستدلال على أهمية تأثير النصارى العرب في عهد مبكر من عهود «النهضة» «والإصلاح»، ذلك التأثير الذي بلغ أوجه، فيما نظن، في الأربعينات من القرن العشرين بتاريخ النصارى عندما أسس النصراني ميشيل عفلق حزب البعث العربي.

كتب عبد الرحمن الكواكبي (1854-1902) وهو من أبرز ممثلي الفكر النهضوي في كتابه: «طبائع الاستبداد» يقول: «يا قوم -وأعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين- أدعوكم إلى تناسي الأحقاد والإساءات، وما جناه الآباء والأجداد (...) يا هؤلاء، نحن ندبر شؤوننا، نتفاهم بالفصحى، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضراء، ونتساوى في السراء. دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم في الآخرة فقط. دعونا نجتمع على كلمات سواء، ألا وهي: فلتحي الأمة! فليحي الوطن! فلنحي طلقاء أعزاء! أدعوكم وأخص منكم النجباء، فلنصبر ولنتصبر فيما إليه المصير».[1]

(1) نقلا عن مجلة «الفكر العربي» ص: 482، العدد 22، سبتمبر 1981.

كيف ذهب يسبح في بيداء الوهم واحد من أكثر الرجال وعيا في ذلك الوقت! كان الكواكبي رحمه اللّه شعلة من الثورة على الاستبداد، كان من نجباء الاتجاه النهضوي، يشبه جمال الدين الأفغاني في انقطاعه عن الوظيف وعن كل شؤون الحياة ليتفرغ مثله للثورة ويحترفها ويُفني في ظلالها عمره. وتمتاز اليقظة النهضوية «الأفغانية» عن اليقظة النصرانية أن الأولى تسعى للتحرر من النير العثماني بالوسائل الثورية بينما تتوسل الثانية إلى نفس الهدف بالتسلل الثقافي لنسف البناء من أساسه. ومع ذلك يعد كتابا الكواكبي «طبائع الاستبداد» و«أم القرى» إنتاجين ثقافيين من أهم ما كتب في ذلك العهد، ينتقد في الأول الدولة العثمانية، وفي الثاني ينتقد المجتمع المسلم ويبرز أمراضه. ولعل نقده المتبصر ذاك لا يزال في كثير من نواحيه أكثر جرأة وأوضح منهاجا مما يُكتب في هذه السنين الأخيرة، حيث يغلب على كتابات العرب والمسلمين إما الشتم الانفعالي أو الرثاء للنفس والنفخ في الأمجاد بما يغطي الحقائق، فيستحيل الفهم ويختلط العمل.

الخبط الكامل أتى هذا العمل من استناد صاحبه في نقده إلى المفاهيم اللبرالية العلمانية التي طفت على فكره، فوصف المرض الاستبدادي وحالة الأمة السيئة ولم يجد من دواء يقترحه، وهو المسلم سليل بيت الشرف والعلم، سوى الوصفة العلمانية: فصل الدين عن الدنيا.

ولم يتفرد الكواكبي بهذا المذهب من بين دعاة النهضة والإصلاح، فالزعيم الثاني في تلك المدرسة نفسه، الشيخ محمد عبده رحمه اللّه،

يدعو نفس الدعوة، بنفس الوضوح والقطع. الفكرة إذن كانت رائجة في ذلك الوقت، وما يفيدنا الكواكبي إلا بتوجهه إلى فئة «الناطقين بالضاد من غير المسلمين» ليدلنا على أهم المخاطبين الذين تقدم لهم هذه التنازلات.

يقول الشيخ محمد عبده عفا اللّه عنا وعنه بنفس القطع والوضوح: «لو رزق اللّه المسلمين حاكما يعرف دينه، ويأخذهم بأحكامه، لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين، وما قرر الأولون وما اكتشفه الآخرون في اليد الأخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الأوربيين فيزحمونهم»[1].

هل كتب الشيخ هذه المقالة قبل الثورة العرابية التي شارك فيها؟ هل هو برنامج مقترح لهذه الثورة التي كانت قومية مسلمة علمانية لا تتميز فيها الاتجاهات وسط الغمرة الوطنية العاطفية؟ أم كتب بعد رجوعه من المنفى وتفرغه لإصلاح القضاء والأزهر والأوقاف؟ هل يعني بما يقرره الأولون «علوم الأوائل» أي الفلسفة؟ وأية فلسفة؟

كان النهضويون الإصلاحيون ينتقدون الجمود العقلي والتقليد، ويشيدون بالعقل الاعتزالي الحر، لكنهم لم يشعروا، وهم معذورون، أن انبهارهم بالحضارة الغربية وحماسهم الوطني العارم دفعاهم إلى نقيض ما كانوا ينتقدونه، فأوغلوا في السطحية العقلانية، وسقطوا في شراك الفكر العلماني، حتى بدر من أساطينهم ما نقرأ صراحة براحةً

(1) نقلا عن كتاب د. عمارة «تحديات لها تاريخ» ص: 202، ط 2، 1982، المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

من أن الدين للآخرة فقط، وندبر ما سوى ذلك أو نتفاهم على تبني «ما قرر الأولون وما اكتشفه الآخرون».

إن فكر الإصلاحيين النهضويين، ما هو إلا توالد لنفحة الأفغاني رحمه اللّه موقظ الشرق، والرجل كان شهابا ثاقبا ذكاء، وغيرة، وثورة على الاستعمار. فكل الوسائل كانت سائغة عنده للتخلص من الاستعمار الإنجليزي، لذلك انخرط هو وتلامذته، ومنهم محمد عبده، في المحافل الماسونية، وجاملوا إلى حد الإخلال بالعقيدة التيار العقلاني. دليل ذلك تأويلات محمد عبده عفا اللّه عنه للغيب. ثم ها هي ذي نصوصهم تدعو للعلمانية بما لم يزد عليه الشيخ علي عبد الرازق من الجيل التالي إلا بصياغة «أصول الحكم في الإسلام» صياغة مفلسفة.

إن هؤلاء الإصلاحيين النهضويين، رغم أخطائهم الفكرية والسياسية والعقدية، هم مؤسسو المدرسة الإسلامية الحديثة، عاشوا فترة اليقظة الأولى فانبهروا مع الناس وتأثروا بمعاصريهم وأثروا، وغالبوا التيار التغريبي العلماني اللبرالي وانغلبوا. لكن أفكارهم هي أساس بني عليه رجال أَثبَتُ خطىً على منهاج السنة مثل الشيخ رشيد رضا ومحب الدين الخطيب رحمهما اللّه. ومن مدرستهما تخرج الإمام حسن البنا رحمه اللّه. وكل جيل أخذ ممن قبله عناصر وظفها في الفهم المستقبل.

تموجات وتيارات

تموج تفكير المثقفين العرب، تحت قيادة النصارى العلمانيين، مع الأحداث السياسية والرغائب القومية والانتفاضات الموازية لمطالبات «جمعية الاتحاد والترقي» التركية القومية والمتساندة معها. واستعرت نار الحرب العلمية الأولى فوجد القوميون العرب المنضوون تحت لواء الشعارات التي رفعها الكواكبي «ليحي الوطن، لتحي الأمة!» وعود الإنجليز والفرنسيين تمنيهم بالغد المشرق. وفي خضم الثورة العربية، وحمى الفرحة بانزياح كابوس الاستبداد، تقدم خديعة الإنجليز والفرنسيين بعد أن ألقت الحرب أوزارها وانهارت الإمبراطورية العثمانية ليحل الاستعمار محلها، اِتجه المثقفون العرب إلى النضال السياسي. وفي كنف الأحزاب السياسية بمصر والشام والعراق ترعرع الفكر التغريبي العلماني اللبرالي وازدهر.

كان من المثقفين جناح متطرف، رأيه الذي نشره في الجرائد والكتب، وبشر به علانية في وجه الأزهريين والإصلاحيين والسلطة المحايدة، أن نطرح الشرقية وأفكارها ومخلفاتها، ونأخذ الحضارة الغربية «بخيرها وشرها، حلوها ومرها» كما قال واحد من زعماء هذه الطائفة طه حسين في كتاب «مستقبل الثقافة في مصر». قائد هذا السرب لطفي السيد، ثم النصراني القبطي سلامة موسى وطه حسين ومحمود عزمي. وقد طبق المتفرنج طه حسين منهم الليبرالية العقلية في دراسة الأدب الجاهلي فجاء بما لم تستطعه الأوائل ليطعن في

أصول الوحي نفسه. وتميز إسماعيل مظهر بين العقلانيين، إذ كان نظره أن يتحرر العقل من كل سلطة خارجية، يعني الدين.

وعام الكل في الخليط الثقافي العصري يومذاك، المحلي منه والعالمي، من داروينية، وقومية فرعونية أو عربية، ودستورية ديموقراطية. والصوت الإسلامي يرفعه في مواجهة الإعلام العلماني القوي قلة من الكتاب أمثال الشيخ رشيد رضا ومصطفى صادق الرافعي، ومحب الدين الخطيب رحمهم الله.

تموج الفكر مع الأحداث والسياسات والموضات الثقافية، لكن الإشكالية الأساسية بقيت على حالها، وهي إشكالية الجمع بين الحداثة والتراث، بين الدين والدنيا، بين الروح والمادة، أو التفريق بينهما. كانت الهزيمة النفسية أمام إنجازات الغرب وتألق حضارته، والهزيمة السياسية أمام الاستعمار، والباعث الذاتي، المندس في الذات، وهم النصارى العرب المغربون، كلهن يدفعن في اتجاه تقليد الغرب وتبني ثقافته. وكان النفور الذي يشعر به المثقفون المتخرجون من مدارس التنصير ومن جامعات الغرب تجاه انحطاط مجتمعهم وتزمت الذهنية التقليدية يرغبهم في التفرنج في العادات والأخلاق ونمط الحياة. إلى الجانب الآخر كان الأزهريون الملصقون بالأرض والشعب، لم يزوروا أوروبا ولا ذابوا محبة فيها. فبقوا العنصر الثابت الذي دافع عن الدين من مواقع تتراوح بين التقليد والجمود على الماضي. وهذا كان سواد الأزهريين. لم يتمكنوا وهم في مواقعهم المنعزلة من الفهم الواعي للعصر وحاجاته، والغرب وحضارته.

نعيش اليوم بحمد الله ارتداد الموجة، والريح الرخاء تهب في اتجاه العودة إلى الإسلام. في تلك العقود من السنين، كانت الريح العاتية تهب في اتجاه تقليد المغلوب للغالب. لم يسلم من تيارها أزهريون من أمثال الشيخ علي عبد الرزاق عفا الله عنه والشيخ عبد المتعال الصعيدي عفا الله عنه، ولا حتى بعض أئمة الأزهر كالشيخ محمد شلتوت غفر الله له في بعض فتاويه.

بين مد وجزر تغالب التياران، وتداخل الفريقان، وتبودلت التأثيرات. فمن مشايخ نفخت عليهم رياح التغريب والعلمنة مثل الكواكبي ومحمد عبده ومن ذكرنا، ومن مثقفين زاروا الثقافة الغربية وسكنوها أحقابا ثم رجعوا إلى الإسلام والعروبة، منهم إسماعيل مظهر زعيم النشوئية يوما ما، وحسين هيكل، والعقاد، ومنصور فهمي، وحتى طه حسين في إسلامياته.

الاشتراكية القومية

ما بين الحربين العالميتين انغرزت الاشتراكية الإصلاحية والشيوعية الثورية في الواقع الدولي على إثر الثورة البلشفية في روسيا، ومن أثر الأزمة الاقتصادية الحادة في الثلاثينات. وارتفعت المطالبات بالعدل في الدول الأوربية وفي البلاد المستعمرة مع شعارات التحرر الوطني عقيب الحرب العالمية الثانية في الوقت الذي كان اليسار الأوربي، ومنه الأحزاب الشيوعية، تساند هذه الحركات. كان العالم حديث عهد بالمغامرة النازية التي وضعت على وجه أوروبا علامة من علامات الجاهلية المتأصلة. تزايد الشيوعيون في العالم، وهم في أوج الافتخار بالعشرين مليون ضحية التي سقطت من الروس في الحرب العالمية الثانية، وأيدوا شعارات التحرر والعدل بين الشعوب ليزرعوا في معسكر الخصم البرجوازي بذور الثورة بعد أن استولوا على نصيبهم من غنائم الحرب واحتلوا أوروبا الشرقية كما خولتهم قسمة معاهدة يالطا.

في بلاد العرب والمسلمين أخذ الفكر الشيوعي والانتماء القومي يتعززان على حساب الثقافة اللبرالية السابقة، وأخذت الحركة الإسلامية على يد الإخوان المسلمين في الشرق العربي والجماعة الإسلامية في الهند، ثم باكستان، تزاحم دعوة وتنظيما.

كلما أعلن الاستقلال السياسي في بلد من بلاد المسلمين وما سمي بعدئذ بالعالم الثالث اكتشف الوطنيون بعد الاستيلاء على

مقاليد الدولة أن ذلك الاستقلال ليس إلا مقدمة لمشاكل عويصة كل منها يطلب حلا عاجلا. ومن أهم هذه المشاكل المشكلة الاجتماعية الداخلية والموقف الدولي من إحدى الكتلتين. فبرزت في الأفق السياسي كلمة الاشتراكية وفكرة الاشتراكي والمذهب الاشتراكي. وأصبحت الكلمة تعني في خيال المجتمع السياسي وعند المثقفين ما كانت تعنيه كلمة «حرية» وكلمة «ديمقراطية» من قبل. وسبقت الكلمة الجديدة والمفهوم الجديد، الذي تكسوه الدعاية الروسية والفكر الماركسي ألوان المطلب الأسطوري والأمل المجنح، كل كلمة غيرها وبَزَّتْ.

ربما تكون كلمة «قومية»، وهي كانت العماد الإيديولوجي لحركات التحرر، هي الشعار الوحيد الذي استطاع أن يصمد إلى جانب الاشتراكية. ووقع استهلاك كبير للفكرة، وأضيفت الصفة لكل موصوف يقبلها أو يتنافر معها. ومن جملة الموصوفات الإسلام. ويبدأ التلفيق من عبارة «الإسلام الاشتراكي» أو «الاشتراكية الإسلامية».

شيئا فشيئا أزاحت الاشتراكية والقومية الحركة الإسلامية من طريقها في مصر بعد «ثورة» الضباط الأحرار. وطلع العقيد جمال عبد الناصر في سماء العرب نجما يتألق بالوعود الكبيرة: بالقومية، بالوحدة، ثم بتاج الكل: «الاشتراكية». الوحدة، حتى على مستوى العروبة، لا تقتضي عداء الإسلام لولا أن الضباط الثوار والنخبة المثقفة الإدارية التي التفّت حولها كانت علمانية في فكرها وسلوكها وتوجهاتها، ولولا وجود الخمسة في المائة من النصارى، ولهم في

مصر والشام شأن. على مستوى الحكم والتنفيذ، كانت المسألة الاشتراكية «علمية»، وتأميما، وحجما منتفخا بعد مؤتمر باندونغ الذي ولدت فيه حركة عدم الانحياز، واكتسب فيه عبد الناصر هيكل القائد الدولي، وخصوصا بعد الهجوم الثلاثي من قبل اليهود وحليفتهم فرنسا وإنكلترا، وما تلاه من جلاء أراده الأمريكانيون ونسبه العقيد لنفسه ونظامه، فاكتملت له بكل ذلك مقومات البطولة التي ركزتها الخطابة المتأججة و«صوت العرب» الحاضر في أذن كل عربي يتوسم ظهور البطل الملهم.

على مستوى الحكم كان ذلك، أما على مستوى الخطاب، فكان الإسلام كلمة مشكورة. ميشيل عفلق، منظّر القومية الأول، يدبج مقالات ورسائل في تمجيد «الإسلام العربي» و«النبي العربي». وعبد الناصر بطل القومية يصلي الجمعة رسميا، ويعطي الإسلام كلمة تسامح كلما عنت الفرصة ليمتص التطلعات الإسلامية في الشعب، بينما الإخوان المسلمون يُوفدون للمشانق، ويُسامُون سوء العذاب في أقبية السجون.

كان التلفيق عملية إيديولوجية، بمقتضاها تلبس التجربة العربية للاشتراكية ثوبا من الألفاظ الإسلامية. وفي البلاغة العفلقية تتقاطر العواطف القومية الرومانطقية ندى، وتتصاعد بخورا للأمجاد الإسلامية.

الحل التلفيقي

بعد هزيمة 1967 النكراء أمام اليهود، فقد البطل القومي عبد الناصر بعض شعبيته، وتراجع القوميون العلمانيون قليلا في الحيز الثقافي، وانفتحوا للحوار من مواقفهم المهزومة مع الإسلام، وعلى قدر تجمع الاتجاه الإسلامي في تكتلات لها بال يزداد ميل العلمانيين القوميين إلى الحلول التلفيقية، ينظّرون لها، ويستنبطون لها سوابق، ويتعلقون بعباءة «الشيخ الإمام» محمد عبده رحمه اللّه وغفر له. وينشرون كلمة الكواكبي رحمه اللّه وغفر له: «الدين للآخرة فقط» ويحيون ذكرى المعتزلة، ويفخرون بعقلانية «الفلاسفة المسلمين»، ويسبقون التفكير الإسلامي إلى منابع التاريخ ليؤصلوا وجهة نظرهم في مقالات موروثة، وأحاديث وآثار مدسوسة في بطون الكتب.

من أصحاب التلفيق دكاترة أزهريون يحبهم العلمانيون ويصفونهم بأنهم «أهل التنوير» مثل الدكتور محمد أحمد خلف اللّه. ومنهم دكاترة جامعيون ملأوا الدنيا كتبا وأبحاثا موثقة المصادر محبوكة النسيج مثل الدكتور محمد عمارة. إن تقدم الإسلام في الميدان خطوة رأيتهم يتقدمون في التنظير التلفيقي خطوات. الثورة الإسلامية في إيران أيقظتهم كما أيقظت العالم إلى أن «المخزون النفسي» في الشعوب الإسلامية طاقة حبلى بكل المفاجآت، فتسمع الحلول التلفيقية التوفيقية وهي تتحول نغمة أناشيد جماهيرية.

الجادون الصرحاء من أهل التلفيق يدافعون عن العلمانية القومية ويكشفون نواياهم الحاضرة والمستقبلة، لا يعطون الإسلام أكثر مما يعطى لضرورة واقعية لا مناص للتعامل معها، لا يعطونه أكثر مما تستحق مخلفات أثرية وعقابيل تاريخية هي من السلبيات التي يحسن أن تدارى حتى تضمحل مع الأيام. أعلى أبصار هؤلاء غشاوة، أم هي «الصرامة الفكرية» و«أمانة» المثقفين؟

يدفع العلمانيون دعوى الإسلاميين أن الإسلام يحتوي على نظام كامل نهائي يحل مشاكل المجتمع البشري في كل زمان ومكان. ويتهمون الإسلاميين بأنهم يريدون التفرد بالحكم والسيطرة على الميدان لأن الفقهاء وحدهم يحتكرون القدرة على الاجتهاد وتأويل النصوص. فما يُؤمَن أن يقيموا دولة التعصب وسفك الدماء؟

بعبارة أخرى يدافع العلمانيون الأكثر صراحة عن زعامتهم الفكرية وإيديولوجياتهم الشمولية، قومية أو ماركسية، كما يدافعون عن مواقع أقدامهم السياسية.

يتقدمون بحججهم من محكمة التاريخ التي تتهمهم بكل ما لحق العرب والمسلمين من هزائم بعد تهمة إسقاط «الخلافة العثمانية»، فيوجهون اللوم للإسلام. هجوم على الإسلام لتنسى التهم. كيف يمكن أن يشتمل القرآن وتشتمل السنة الجواب عن كل المشكلات الحيوية لمجتمع عصري يختلف كل الاختلاف عن المجتمع القبلي الذي شاهد ولادة الإسلام؟ كيف يمكن تطبيق تلك التشريعات العتيقة التي نزلت زمان حضارة الجَمل في عصر الصواريخ والكواكب الصناعية؟

حيث تكون إشكالية الإسلاميين: «كيف نفرع من أصولنا أحكاما تحتضن مشكلات العصر؟» تكون إشكالية العلمانيين الملفقين: «كيف نغير فهمنا للإسلام فلا نربط به كل نظامنا الدنيوي؟» ويزعمون أن الكتاب والسنة ليسا ملزمين في كل شؤون الحياة وإلا لما كان القياس، وهو رأي بشري، ولما كان الإجماع، وهو إرادة بشرية، مصدرين أساسيين للتشريع.

مع هذه المطاعن المبدئية فالملفقون يعترفون بالضرورة السياسية لمصانعة دين الأغلبية وأخذه بالاعتبار. بعبارة أوضح: إنهم يوصون باحتواء الإسلام «المتعصب» «المتطرف» «الأصولي» واقتراح إسلام تقدمي وحدوي اشتراكي قومي تلافيا للضغوط الإسلامية القوية التي يخاف أن ترافع دولة الرجعية والطائفية والبرجوازية الإسلامية الإقطاعية.

هنا يلتقي مشروع «الإسلام الأمريكي» كما كان يقول سيد قطب رحمه اللّه في الخمسينات مع مشروع الإسلام التلفيقي. كلاهما يخاف ظهور الدولة الإسلامية، وكلاهما يلتمس بديلا عن إسلام الكتاب والسنة في طبخة إيديولوجية ما لا تأخذ من الإسلام إلا اسمه لتطرحه على حقائق مذهبية وسياسية تخدم هذه الدولة العظمى، أو هذه الطبقة المثقفة، أو هذا التيار الحزبي، أو هذا المستقبل المنحاز، أو كل ذلك معا.

يريد الملفقون تفادي الأخطار التي وقعت فيها السياسات المعادية للدين. هما عيبان رئيسيان لخصهما أحد الناصرين البارزين، الدكتور محمد النويهي، في كتابه الذي يحمل العنوان

- البرنامج: «نحو ثورة في الفكر الديني»، قال: «أول الخطأين أنهم لم يقدروا تقديرا تاماً مدى سيطرة الدين على عقول المؤمنين به، وهم كثرة الناس، وأن هذه الكثرة الغالبة إلى الآن ليست مستعدة للتنازل عن معتقداتها الدينية مهما يقم لها الدليل والبرهان على أن هذا التنازل يكون في مصلحتها، مصلحتها الفكرية والمادية معا». قال: «وثاني الخطأين أنهم لم ينتبهوا إلى أن العيب ربما لا يكون في الدين نفسه، بل قد يكون في إساءة فهمه وإساءة استعماله». وينتهي الذكي إلى الاستنتاج التالي: «الحملة على الدين نفسه ليست إذن سوى محاولة كيخوتية[1] مبددة للجهود. هذه هي الحقيقة التي ينبغي أن ندركها جميعا مهما يكن رأينا الخاص من صحة الدين أو خطئه». والعلاج عنده: «فلنوجه جهودنا إلى محاولة أرشد وأنفع: كيف نقنع الناس بألا يتخذوا من الدين حجر عثرة يقيمونه أمام كل رأي جديد. وكيف في تحقيق هذا الهدف نتجاوز الإصلاح الجزئي المبعثر الذي انحصرت فيه جهودنا حتى الآن [...]. كيف نروج بينهم تلك النظرة العلمانية التي ذكرناها»[2].

ويعود الكاتب يشرح تلفيقه مستندا إلى «مصلحنا العظيم الإمام محمد عبده وتلامذته، وأتباعه في مدرسة المنار»، منداً بالخطإ السياسي الذي ارتكبته الثورة الفرنسية والثورة الروسية في محاربتهما الدين. وعندما ينتهي من اللف والدوران يصرح بلب

(1) نسبة إلى (دون كيخوت).

(2) «نحو ثورة في الفكر الديني»، ص: 99-98، ط الأولى، دار الآداب، بيروت، 1983.

فكره قائلا: «هذا هو رأينا الذي نصرح به: إن كل ما في القرآن وما في السنة - دعك من مذاهب الفقهاء - من تشريعات لا تتناول العقيدة وما يتعلق بها من شعائر العبادة، بل تتناول أمور الدنيا ومعاملاتها وتنظيمها وعلاقاتها، كل هذه التشريعات جميعا بلا استثناء واحد ليست الآن ملزمة لنا في كل الأحوال، حتى ما كان منها زمان الرسول (نقول: ﷺ) من بابي الفرض والتحريم، لم يعد الآن بالضرورة كذلك، بل لنا الحق في أن ننقله إلى بابي الندب والكراهة، إن لم ننقله إلى باب المباح»[1].

لا تجد في كتب الدكتور عمارة مثل هذه الصراحة. لكن تجد نفس التمجيد للشيخ الإمام «محمد عبده» رحمه اللّه، ونفس الإجلال للفكر «التنويري» الذي صرح به منذ ما يقرب من قرن بأن الدين للآخرة فقط. ما يكتمه الدكاترة الأكاديميون صرح به هذا الدكتور المناضل، وأوصل الأمور إلى نتائجها المنطقية. فلا بأس عنده من مداراة الشعب الذي لا يريد الانفصال عن دينه ريثما نروج للعلمانية. ننصب للشعب واجهة دينية ريثما يصل إلى درجة النضج فيتقبل تغيير «كل ما في القرآن والسنة» فأحرى أقوال الفقهاء، فلا حلال ولا حرام إلا ما قررته الإدارة السياسية.

يكفينا هذا القدر لننبه إلى خطر الحاملين لرايات الإصلاحية النهضوية العلمانية.

(1) «نحو ثورة في الفكر الديني»، م س، ص: 148.

ركيزة الانحطاط

هي علمانية واحدة، إنما تتفاوت درجة العداء للدين وتختلف الزاوية الإيديولوجية لنقد الدين وإن تماثلت الأسباب السياسية للتعامل التلفيقي معه. هناك رأس السهم الماركسيون، الدين عندهم عاهة وعيب فلسفيا، أفيون شعوب سياسيا واجتماعيا. هناك جموع متنوعة من اللبراليين، هناك فلول واسعة من الناصريين. وقد رأينا عينة من فكرهم نستطيع أن نقدّرها مُمَثِّلة لرأي الساكتين. هناك القوميون العرب من كل صنف. وهناك الرأي العام المثقف الذي يتجاوب مع العلمانية، خصوصا إذا كانت تقترح تلفيقة أقل «صراحة» من تلفيقة الدكتور النويهي.

الكل يجولون في البحث عن أحسن وسيلة لتمشية إيديولوجيتهم دون أن يصطدموا بالعاطفة الدينية للجماهير. من كان منهم يستخف بالدين، ومن يجهله، يبني على هذه المسلَّمة: وهي أن المتدينين والدعاة إلى الإسلام عاجزون عجزاً نهائيا عن فهم العصر ومتطلباته. فأما العلماني المرن، وقد يعلن أنه مؤمن متدين، فيدعو للأخذ بالأصلح في الدين وتوفيقه بالأصلح في الفكر العصري. وأما العلماني الذي يغلي غليانا، لما يراه من السخط الشعبي العام ومن اليأس والرفض للسياسات القومية الاشتراكية الانفتاحية والثورية، فقد يفقد أعصابه وينسى مراعاة الرأي العام المسلم، ويبين عن عدائه الأصيل للإسلام.

هذا النوع المتشنج من العلمانيين لا يضعون جهودهم في تهييء صيغة تلفيقية قد يكونون أقل العلمانيين خطرا لوضوحهم. إذا عارضهم معارض بأن سبب فشل التجربة الناصرية هو علمانيتها أجابوا بأن السبب هو بالعكس إبقاؤه على «ركيزة الانحطاط» وهو الإسلام، وتعامله معه تعاملا غير ثوري. وتجد ماركسيين يدافعون عن تجربة عبد الناصر عدوهم يومـًا ما.

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يجعل الطائفة الدينية وسيطا بين الفرد والدولة، فيبعد كل إمكانية للتجمع الديمقراطي العقلاني.

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يرسم خطّـًا تراجعيا للتاريخ حيث يقنع معتنقيه بأن السلامة في اتباع السلف واقتفاء أثره، فالمستقبل خلفنا لا أمامنا. بينما تجد في الإيديولوجية الشمولية، الماركسية مثلا، النظرة الصحيحة إلى المجتمع والتطور التاريخي المنفتح على مستقبل يمكن أن نتعامل فيه مع العصر وقد ألغينا قيود الماضي وسلطته.

الإسلام ركيزة انحطاط لأنه يلغي الإرادة البشرية، ويلغي السياسة كعلاقة بين البشر، ليحكم إرادة خارجية، إرادة السماء، وليفرض على المجتمع سلطة أبدية لا تتغير، يجسدها الاستبداد الفردي الذي كان دائما أسلوب الحكم الإسلامي.

يعتبر العلمانيون الصرحاء كل الصراحة أن الإسلام سمة من سمات التخلف، لأنه لا يتيح تنظيم المجتمع على أسس ديمقراطية، ولا يتيح تحقيق المساواة بين الطوائف المتعايشة في المجتمع. كارثة لبنان وما نشأ عنها، بل نشأت عنه، من تمزيق للمجتمع أراده النصارى

وحلفاؤهم اليهود وصنعوه، تعزى للإسلام وتعصبه. وفي ضوء المأساة اللبنانية تبدو العلمانية الضمان الوحيد لإعادة وضع كانت العلمانية سببا في تفجيره. كانت علمانية على السطح تحت أذيالها تعايشت الطوائف في لبنان بضعا وثلاثين سنة تحت الهيمنة الفعلية للنصارى، تحت القهر النصراني، والاستعمار النصراني. كان الميزان الطائفي قبل الحرب الأهلية ميزان قوى طائفية يزينه الطلاء العلماني للدولة ويخفيه. فلما اختل ذلك التوازن وافتضحت الطلاءات يدعو القوميون والماركسيون لتجربة علمانية أخرى تحتل بمقتضاها الإرادة البشرية الديمقراطية محل الإرادات «الخارجية» الطائفية.

العلمانيون الصرحاء لا يثقون بأن الإسلام يمكن أن يرعى العقلانية الضرورية لتقدم المجتمعات الإسلامية. بدون العقلانية لا يمكن أن نستخدم الإمكانيات التي بين أيدينا لتحقيق التنمية. ولا أن نبني دولة عصرية، ولا أن ننظم جهازا إداريا، ولا أن تتراكم عندنا الخبرة العلمية والتكنولوجية. الإسلام غيبية تتناقض مع العقلانية وتحاربها.

الإسلام لا يسمح بالنظرة العقلانية الضرورية لفهم الواقع فهما مطابقا. هنالك الأفكار المتقبلة، والأوهام الدينية والجبرية التي تنفي السببية. في لبنان نصارى هم أكثر تقدما حضاريا من المسلمين لأنهم كانوا أسبق إلى العلمانية. هم لب ذلك المجتمع وروحه.

نجيب نحن: لذلك أدى ذلك التقدم النصراني العقلي الحضاري إلى النشاط العضلي الماروني الذي خرب لبنان. أي شيء خرب البلاد والعباد، الإسلام الذي حكم لبنان أربعة عشر قرنا لم تنل

أثناءها إلا نصيبها بين سائر بلاد الإسلام من عنف وحروب وثورات، أم المارونية العقلانية المتحضرة وحلفائها اليهود وما فعلوا بلبنان في عشر سنوات؟ من الذي يهدر الموارد المالية والطبيعية، من الذي يبيد البشرية هناك، الإسلام الذي حضن الأقليات النصرانية أربعة عشر قرنا أم التدمير اليهودي الماروني الذي نسف البيوت وشرد الأرامل واليتامى بعد قتل الرجال؟

العلمانيون يزعمون أن توحيد العرب لا يمكن مع تدخل الدين في شؤون الدولة، يرون أن التجزئة التي يعانيها العرب تجزئة سياسية واجتماعية. من قطر إلى قطر عداءات وتنافر تجد تفسيرها في تعارض الإيديولوجيات وإستراتيجيات الأحلاف. وداخل كل قطر تناقضات عمودية طائفية تقف في وجه الاندماج الاجتماعي.

أخذ العلمانيون في ضوء التخوض الماروني في لبنان يرجعون على استحياء بعض اللائمة على التعصب النصراني، لكن الإسلام لا يزال هو الخصم. ويا لها من نظرة عقلانية مطابقة للواقع، هذه النظرة التي تنسب كل ظاهرة إلى الانحطاط العربي وركيزته المعلومة في أدبيات التعصب ضد الإسلام، مُراغمةً للحقائق الميدانية السافرة.

ومن الغريب أن نجد العلمانيين يقلِبون الحقائق ولا يكتفون بتجاهلها. فالإسلام عندهم هو المسؤول عن السقوط الأول، وعن العجز عن النهضة. الإسلام لم يوقف الانهيار المتزايد للأمة، ولم يستطع مجابهة التخلف والتشتت. ما فعلته الأنظمة العلمانية اللبرالية والاشتراكية التي عزلت الإسلام وحكمت بالقانون

الوضعي وتوجهت وفق التعاليم اللاإسلامية هو من فعل الإسلام سلبا وإيجابا.

الإسلام موضوع في قفص الاتهام. بذمته وعلى مشجبه تعلق كل الجرائم. إنه التخلف نفسه! إنه العيب والعاهة! إن الدولة الإسلامية، وليست بعدُ إلا حديثا باستثناء إيران، هي الخطر الذي يهدد البشرية، إنها تجهل حقوق الإنسان لأنها لا تنبع من الإنسان. بل تسقط عليه من أعلى ومن خارج. وما لم ينبع من الإنسان لا يمكن إلا أن يكون نظاما بدائيا وحشيا. الإسلام هو النموذج المكتمل «للاستبداد الشرقي» المعروف في علم السياسة بخصائص الفظاظة والخشونة والهيمنة الفردية المتقلبة المزاجية الدموية.

الثورة الثقافية

الخطر العلماني الذي ينبغي لأهل الإيمان أن يترقبوه ويحترسوا منه أشد الاحتراس ليس العلمانية الكاشفة عن أنيابها المهددة الثلابة، لكنه العلمانية الرقطاء المتسربة إلى المسلمين وهي لابسة ثوبي زور. إنها علمانية «جغرافية الكلام» المستقبلية التراثية المجددة. تلك التي تمجد الإسلام وتنتقد الماركسية والامبريالية وتتزلف للمخزون النفسي الجماهيري.

أما علمانية الذين لا يزالون يغطون فشل التجارب العلمانية بالزعيق على الإسلام، والدعوة المتجددة إلى ثورة ثقافية علمانية تغير المجتمع وتقضي على «الإيديولوجية السائدة» فما هم إلا طلبة لمَّا تنفتح أدمغتهم المكدودة لإدراك ما يجري في الواقع. من عادة المثقفين أن ينتظروا زمانـاً حتى ينعكس الواقع على أدمغة قادة العالم، ويتحول الانعكاس إشارات مترددة على وتيرة الخطر الدائم، ليتلقفوا المعرفة من أفواه الرجال وأقلام الأعلام، لا يستطيعون أن يقرؤوا الواقع حيا.

إننا لا نستهين، ولا ينبغي أن نستهين، بالثورة الثقافية العلمانية القائمة أسواقها في مجتمعاتنا، الرائجة عملتها، المرتكزة دكاكينها ومحطات بثها في كل مرفق من مرافق الحياة، خاصة في المرافق التربوية. العلمانية متمكنة في الأرض الثقافية. لها القيادة في الكليات ومراكز التوجيه. فشلت العلمانية في مظهرها السياسي، في وظيفتها

السياسية، لكنها لا تزال متربعة على كراسي الإدارة والإنتاج الفكري، لا ينقص من خطرها على الإسلام بُطْءُ فهمها للتحولات نحو الإسلام الجهادي في عموم دار الإسلام.

لم تجرؤ الأنظمة العلمانية إلا قليلا على إعلان نفسها على حقيقتها. في الدساتير تجد في مقدمة البنود أن الدولة دينها الإسلام. ويترجم هذا في ممارسة الحكم إلى تنازلات جزئية، في «الأحوال الشخصية مثلا» في الزواج والطلاق والوقف. والأنظمة العلمانية رجعية كانت أو لبرالية أو قومية اشتراكية، مستعدة الآن أكثر من أي وقت مضى للتنازلات الجزئية لتؤجل الأمر المحتوم. في مصر تشتد المطالبة بتطبيق الشريعة الإسلامية فيصوت الحزب الرسمي ليعرقل هذا الاتجاه. في باكستان والسودان وغيرهما ترى الحكام يستبقون لتبني إسلام على هواهم يموهون به. أحيانا، كما وقع في سوريا، في حماة الشهيدة، يبلغ سعار القوميين أوجه فيغرقون البلاد في الدم المسفوك. الأنظمة الحاكمة تقرأ الواقع مباشرة، فهي تدرك قوة الصحوة الإسلامية، فتعترف بالواقع إما مجاملة وإما محتالة وإما متبنية وإما فاتكة. الصراع على هذا المستوى مباشر ومن قريب.

أما المثقفون العلمانيون، أصحاب القراءة البطيئة الموسوطة، فلهم السعة ليدبروا استراتيجية المدى المتوسط والبعيد، ولهم الوسائل، ولهم الإرادة. لا تنتظر أبدا أن يخلوا الميدان يوما هكذا كما يستسلم حبيس أثخنته الجراح. استراتيجيتهم الهيمنة الثقافية، والتسرب إلى الأماكن الحيوية في حياة الأمة. ولئن كان اتصالهم بالشعب منعدما، وكلمتهم عنده مرفوضة، وحيلتهم للتقرب إليه

كسيحة، فإن لديهم وسائل الاتصال والإقناع الفكري ليؤثروا في طلبة الجامعات، ويبلغوا صوتهم عبر الكتب والمجلات والندوات واللقاءات والرحلات لجمهور الشباب المتعلم العاطل. والفن ميدان لهم خصب، يتزاوج فيه الإغراء الفكري بالإغراءات الأخرى التي يتقنون اقتناصها وتدريبها.

هدف أساسي لدى العلمانيين، عليه مدار الثورة الثقافية الدائرة رحاها، هو أن يمحو من خاطر كل شاب مسلم السؤال الفطري الذي ركزته التربية الموروثة: سؤال: ماذا يقول الدين في هذا؟ يريدون أن يطمسوا معالم الفطرة التي تسند مثل هذا السؤال، يريدون أن يذللوا العقبة الدينية. قال الدكتور النويهي: «إذا كنا جادين في سعينا نحو «ثورة ثقافية شاملة» وجب علينا أن نبدأ بمواجهة هذه الحقيقة: إن العقبة الأولى في هذا السبيل هي العقبة الدينية، وإننا لن نصل إذن إلى الثورة المنشودة إلا إذا ذللنا هذه العقبة وأزحناها عن طريقنا»[1].

يقول اللّه عز وجل: ﴿إِنَّ هَـٰذَا ٱلْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَم﴾[2]. فما علمنا اللّه تبارك وتعالى في كتابه، ما كلفنا أمراً ونهيـاً، ما وجهنا في تدبير أنفسنا وأموالنا ومجتمعنا، هو التعليم الأقوم، والتكليف الأرشد، والتوجيه الأسلم، والتدبير الكفيل بالنتائج الأحسن. العلمانيون يغيظهم أشد الغيظ أن يسمعوا عن رشاد خارج عن الموقف المصلحي المادي الدنيوي.

(1) «نحو ثورة في الفكر الديني»، ص: 95، ط 1، دار الآداب، بيروت، 1983.
(2) سورة الإسراء، الآية: 9.

يغيظهم أن يسمعوا أن الأمر واحد في التعليم القرآني والتكليف الإلهي. الدنيا تمهيد للآخرة في امتداد واحد. العقيدة والعبادات وتدبير المقومات الدنيوية شيء واحد. السياسة فرع متصل مباشرة بالعقيدة، الاقتصاد له ثوابت وحدود وأخلاقيات هي دين. الإسلام رسالة عالمية لا يمكن أن تنحصر في العرق واللغة.

ماذا يكون هؤلاء المغتاظون من قوة عددية وسط الألف مليون ونيف من المسلمين؟ يمثل الجهد الذي يستطيعون تعبئته، بل المعبأ فعلا، النشيط فعلا؟

لا يفيد في الموضوع أن نستقلَّ عددهم ما دامت النوعية العقلانية والمكانة الاجتماعية تضاعف إمكانات التأثير. لا يُفيد أن نترك جهودهم لتتآكل بالتكرار حتى تمل. لا يفيد أن ننتظر من عوامل الخلافات القومية والمذهبية والمصلحية أن تمزق ما يشبه الشمل. لا يفيد أن نرفض الحوار مع من يطلب الحوار، ولا أن نستعلي بالإيمان عن الجلوس إلى مناقشة، ولا أن نغتر بالحق الذي ندعو إليه إن عجزنا عن تبليغ كلمة الحق، والبرهنة عليها، ومصابرة المجادل، ومطاولته، ومجاولته. لا يفيد أن نلوي أعناقنا أو نتناسى وجودًا مكثفا لطائفة تتفاوت علاقتها بالإسلام من العداء السافر، إلى التوتر الشديد، إلى الفضول المكبوت للمعرفة، إلى التضاد الحزبي، إلى الاستهتار والاستخفاف، إلى التعالي بالثقافة الموسوعية والاطلاع «المحقّق».

ثم إن من بينهم رجالا يعلنون إيمانهم باللّه ورسوله. هؤلاء أهل لكل تقدير، فكم من الوقت يمضي قبل أن يدركوا غرابة عنوانهم: «علمانيون إسلاميون» وتناقضه.

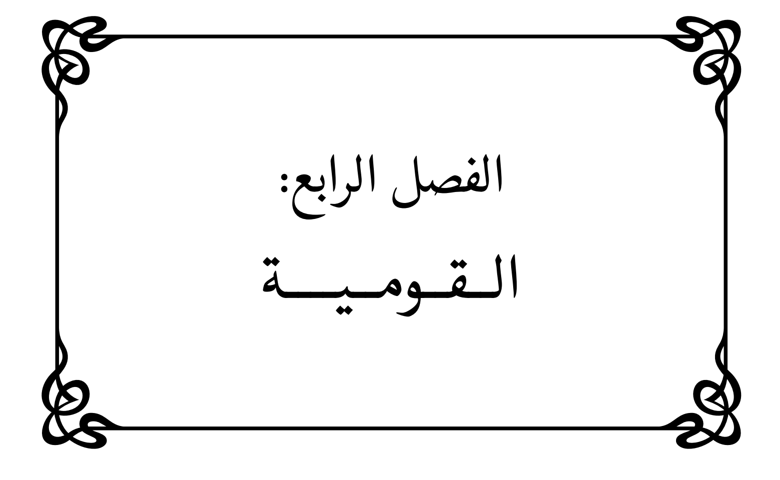
منذ قرن من الزمان تقريبا والعلمانيون ينطحون صخرة الإسلام. كان رنان وهانوتو ولورد كرومر يزعمون أن الإسلام مناف للمدنية، مناقض للتقدم. فانبرى الإصلاحيون محمد عبده والأفغاني وغيرهما رحمهم اللّه ليدافعوا عن الإسلام ويهاجموا أعداء الإسلام. وكان مدار الدفاع والهجوم حول ما إذا كان الإسلام مناقضا للمدنية أولا. لم يطرح الإصلاحيون قبل تلك المعارك هذا السؤال البسيط، الضروري الحيوي مع ذلك: «ماذا تعنون بالمدنية والتقدم؟» ولأنهم لم يطرحوا هذا السؤال فقد انبروا يقاتلون على أرضية رتبها غيرهم، ومن جهة نظر لم ينكشف لها الوجه الحقيقي للخصم.

أمام الإسلاميين اليوم، ولمدة طويلة، عقول صيغت في تلك المدرسة المادية العقلانية التي كان رنان المؤرخ الفيلسوف وكرومر المستعمر الحاكم سلفها. فالمدنية والتقدم، وكل الإطار القيمي الغربي، مسلمات مفروغ منها.

بجهودنا المتواضعة مع الواقع، الدؤوبة الصابرة، الموفقة إن شاء اللّه، نُفهم بالحوار، ونمثل بالسلوك، أن التقدم والمدنية وكل المطالب الإنسانية الشريفة، ماهيات بلا معنى، ومادة بلا روح، ما دامت لا تعطي للإنسان جوابًا عن وجوده، عن حياته ومماته. عن سر تقلبه في هذا الكون بين الطبيعة السائرة به ومنتجات فكره السائر بها.

نُفهم ونُمثل بالسلوك أننا لا نعتبر الغرب ولا الشرق الجاهليين شيطانين ملعونين، لكن نعيد طرح السؤال والنقد. كل مسلّمة علمية وكل مبدإ علمي، وكل ترتيب، وكل مكتسبات العقل البشري والجهد البشري هي مكتسباتنا، هي حق إنساني ليس لأحد أن يضيمنا فيه.

الأصالة والحداثة وكل هذه المفاهيم الرائجة المائجة أفكار مهزوزة تتراقص في مخيلات متعبة. اسأل أيها المؤمن كتاب ربك عن التي هي أقوم، واسأل سنة نبيك ﷺ عن المنهاج العملي إلى بلوغها. اسأل عن التعليم الإلهي، والتكليف، والتوجيه، وعن النموذج النبوي، فإذا معك معيار الحق. وعلى اللّه قصد السبيل ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.



الفصل الرابع:

القومية

الإيديولوجيا القومية

أول ما يتعرف به الإنسان إلى نفسه وإلى من حوله انتماؤه إلى أسرته. ثم تتوسع دائرة التعرف والانتماء مع نمو الفرد ونمو الجماعة فتتفرد الجماعة عن الجماعات الأخرى، وتتخصص وتحدد هويتها بالنسبة لغيرها في إطار العشيرة والقبيلة، وداخل النسيج العرقي اللغوي الأمني الذي يشعر كل فرد من أفراد الجماعة فيه أنه جزء من كيانه.

كل جماعة تحتاج لهذا التفرد وتشتد حاجتها إليه في أيام الأزمات والشك والخطر المهدد من خارج. ويتوسع الانتماء القبلي العرقي فيحتضن أقواما يتكاثرون ويتوحدون على خصائص أعلى من خصائص الدم والنسب، كاللغة والوطن، فتتفتت المعالم القبلية ويتشكل على مر الزمن كيان قومي كلي إليه يكون الانتماء.

القومية كلمة جديدة على المجتمعات المسلمة، ولدت ونشأ مدلولها العصري في أوروبا. في إطار القومية استيقظت حقوق تلك الشعوب، وتبلورت طموحاتها، وتشكلت قواها العسكرية ونظامها الدولي منذ قرنين. جاءنا مفهوم الوطنية، فهمت الشعوب المسلمة معناه بعد أن احتلت الأرض فوجب الدفاع عنها محليا، بالقوى المحلية، في غياب الدولة الإسلامية. وجاءتنا بعد ذلك القومية، وكأن الاستعمار أيقظ فينا بعدائه وعدوانه ذلك القاع الذي كان يغطيه الكيان المعنوي الأعلى وهو الإسلام. استيقظت فينا في وجه

العدوان الاستعماري والعداوة الأوربية والعصبية القومية البرتغالية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية عصبية عربية أو هندية أو سندية.

عند الصدمة الاستعمارية الأولى قاوم المسلمون من موقع مسلم، فلما انهزمنا، وتداخل المثقفون مع الفكر الوارد، وتعرفوا لتاريخ الأقوام الغالبين، نظمت النخبة المتعلمة المقاومة على أسس وطنية قومية. الوطنية تعني في حق قوم مستعمرين جمع الشمل داخل رقعة جغرافية، والقومية تعني توحيد القوى في دائرة أضيق من الوحدة المفقودة، وأدنى منها أخلاقيا وسياسيا وإسلاميا.

إذا كانت القومية في منشئها صعودا من الانتماء الجزئي العرقي وغيره إلى مستوى أرفع، فإنها فينا نزول تفتتي من الوحدة الإسلامية المفقودة، يصاحبه هبوط في الوعي، وتقلص في الوجود، وضمور في الشخصية السياسية.

ها نحن إذن عرضة للدعوة القومية، ومجال لثقافتها، وحقل تجربة لسياستها. تعلمنت القومية الآن، فلا تكاد تجد قوميا لا يعتقد المذهب العلماني حتى ولو كان في شخصه وبإخلاص متدينا. والتحمت الماركسية العربية مع القومية بعد طول جفاء على كلمة سواء بينهم هي الاشتراكية. وتوجهت العاطفة القومية الحادة، وفي ركابها الاشتراكية (ولا اشتراكية إلا «علمية») وعلى عينيها المنظار العلماني المميز نحو هدف الوحدة. هذه الأربعة لا تفترق في هم السياسي، وخطاب المثقف، وشعار المناضل: قومية، علمانية، اشتراكية، وحدة. وتبقى الأهداف العملية، مثل المسألة الاجتماعية، والتنمية، والتقدم، ضمنية يرجو القوميون أن يحققوها بعد الوحدة،

ويرجو الماركسيون أن يستعينوا عليها بالحلف الوحدوي، ويرجو العلمانيون أن لا يتعارض تحقيقها مع هدف الوحدة فيفقدوا ركيزة وجودهم وهو أمل الوحدة.

هذه الأربعة مفاهيم لا يمكن في الوقت الحاضر أن نفصل بعضها عن بعض في الحديث، لأنها في الواقع السياسي الثقافي النضالي متلاحمة. فبمجموعها تتميز أمام الحركة الإسلامية في الداخل، وأمام العالم الخارجي، كتل منظمة في الحكم أو في المعارضة، قطرية أو قومية. وليس أول تناقض في القومية أن تكون قطرية، ولا آخره أن يتزعم النصارى العلمانيون بالأمس، مؤسسو القومية، الدعوة الطائفية والحروب الطائفية.

ميلاد القومية العربية

منذ صعود القومية الطورانية في تركيا على عهد «الخلافة» العثمانية، تبدل الوضوح الإسلامي، وتضببت الانتماءات، وحارت الهوية. تحت مظلة الدولة العثمانية كان الناس رعية، ثم بعد ذلك تذكر الخصيصة الاستثنائية: يهود، نصارى، أو العرقية: عجم، عرب، كرد، بربر. بعد سقوط الدولة التي كانت شوكة الإسلام ورمزه وركيزة هوية المسلمين التمست طوائف المثقفين وضوحا في مطالبات «خلافة عربية»، أو وطنية قبطية، أو نهضة فينيقية، أو حضارة سورية، أو مجد عربي بغدادي، ولاحقا في هوية بربرية.

كان هبوط الواقع والوعي من الدولة الموحدة الكبيرة إلى التشتت القومي نتيجة هزيمة، وخيبة أمل. ظهرت النزعة القومية الطورانية في تركيا منذ أكثر من قرن من الزمان، باتصال المثقفين الأتراك بألمانيا اتصالا وثيقا. وكانت ألمانيا إذ ذاك في أوج قوميتها التي تعوض بصرامتها وصخبها وانفعالها تخلفها العلمي والصناعي عن أوروبا يومئذ. ظن أعضاء جمعيتي «تركيا الفتاة» ثم «الاتحاد والترقي»، وقادتها يهود «الدونما»، أن لا سبيل إلى القضاء على الدولة المريضة المكروهة من كل جانب لأسباب مختلفة، عدوة اليهود وعدوة أوروبا، إلا بإسقاط النظام العثماني بوسائل العصر، ومنها القومية. لما وصل أولئك القوميون العلمانيون، الكفار باصطلاحنا، إلى الحكم بعد سنة 1907، ساموا العرب أشد العذاب. وذلك ما

أيقظ القومية العربية والعصبية العربية. رد فعل غنّى في حفلة ميلاده النصارى العرب نشيد النصر، ووقعوا ببصمات الولاء غير المشروط على وثيقة تجسده كائنا حيا إيجابيا يسعى ويدفع عن نفسه بطش القوميين الترك. في سنة 1916 مثلا قتل جمال المعروف بالجزار شنقا صفوة المثقفين السوريين.

لا نريد أن نبرئ ساحة الحكام الأتراك التقليديين فقد كان منهم الصالح والطالح، وكان نظامهم نظاما وراثيا مهترئا. لكن القوميين الأتراك، هم كانوا خصم الإسلام أساسا: حاصروا السلطان عبد الحميد رحمه الله، وكرهوه، وكادوا له، لأنه حاول ترميم الوحدة الإسلامية، وامتنع عن بيع فلسطين لليهود، ونظم دعوة إسلامية مضادة للدعوة العلمانية التركية. فهو رحمه الله كان أعلى منهم وعيا، وأسمى مطمحا، لولا أنه كان يمثل نظاما آن قطافه، وكانوا يمثلون تنظيما شابا تغذيه أوروبا العلمانية، ويغذيه اليهود والملحدون، بإيديولوجية قومية ليبرالية، بها يمكن الإجهاز على «الرجل المريض».

هزيمة الوحدة الإسلامية تترادف مع هزيمة الدولة العثمانية. وكانت هزيمة ممتدة في الزمان قرابة قرنين، آخر فصل فيها انقضاض مصطفى كمال حامل لواء الملاحدة.

وقبيل هذا الانقضاض، بعد أن استغلت الدولة الاستعمارية طموح العرب القومي وضربت بهم في حربها ضد الدولة المائتة، أصيب العرب في ثقتهم، وخاب أملهم في الوعود التي كانت تمنيهم بخلافة عربية تجمع العرب حول عرش شريف مكة.

القومية العربية في ميلادها كانت تطلب بديلا بالخلافة العثمانية. كانت تطلب نظاما شبيها بالنظام العثماني، مسلما، على رأسه شريف محترم، من العترة النبوية، من أقدس بقعة في الأرض مكة. كانت إسلاما قوميا، عروبة لا تتنكر لدينها فجاءت خيبة الأمل لما خانت إنجلترا وفرنسا وعدهما، و«بلقنتا» بلاد الهلال الخصيب بمعاهدة سايكس بيكو. وبعد خيبة الأمل الهزيمة النهائية لمعنى الخلافة واسمها ورسمها. فمن هذا المركّب المرَضي، خيبة الأمل والهزيمة التاريخية، غشيت أجواءَ العرب والمسلمين غيوم نكراء، وتبدلت في عين المؤمنين من ذلك الأرض غير الأرض، واستحال الوضوح، وانغلقت الهوية، وتوقح الكفر، وادلهمت الخطوب.

طفق المسلمون، المؤمنون حقا لا المسلمون الجغرافيون، يجرون وراء إحياء الدولة الإسلامية بعد الخسف الذي شعروا به عند تقويض الدولة الرمز. لم يصدقوا الحدث المهول، حتى إن طوائف شعبية في آسيا ظنت أن الساعة قامت. هذا الحس المخضرم مات الآن. وولد حس إسلامي جديد. يريد الدولة الإسلامية أسوة بالدولة النبوية لا بديلا عن نظام ضاع لم تحضره هذه الأجيال ولا تمزقت بسقوطه. والصراع الرئيس في هذه المطالبة، بل في هذا الطلاب المشتد بحول الله تعالى، هو الصراع الداخلي بين القومية العلمانية الاشتراكية وبين الإسلام. كل تلفيق باسم الإسلام لن يصمد أمام القومية، وإن العواطف المخلصة التي صاحبت نشوء دولة باكستان على أمل إسلاميتها ذهبت سدى لانعدام الوعي الإسلامي والقيادة المتحزبة لله عز وجل عندما هبت رياح القومية فجرفت البنغالي

القومي عن قوميات أخرى بنجابية وسندية وبلوشية هي الآن بعد الانفصال المأساوي لبنغلاديش في طور صراع تمزقي مستمر. ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

الانتساب لله عز وجل

القومية انتساب طبيعي إلى أصل المولود والنشأة. في سؤال: من هو؟ من أين؟ ممن القوم؟ ليس أكثر طبيعة من نشر الإنسان هويته بالانتساب لقومه وموطنه، في هذه الحدود لا يزاحم الانتساب القومي التسامي الإنساني والاكتمال العاطفي للإنسان ولا يناقضهما، كما لا يزاحمهما الانتساب للأسرة ولا يناقضهما، ما لم يكن التعصب والحمية الجاهلية. والإسلام لا يخاصم بأي وجه ما هو من أصل الخلقة وما هو من مقومات وجود البشر، بل يوجه عاطفة الانتساب للأسرة والقوم، ويقويها، لتصلح قاعدة للانطلاق للخير. قال اللّه عز وجل يخاطب الناس، دون اعتبار إيمان أو غيره: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ ٱللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[1].

الآية الكريمة تُدرج النشأة الإنسانية على مدراج رشدها: من الذكر والأنثى يخلق اللّه سبحانه الكائن البشري. إنه حضن الأسرة، حنان الأمومة وعطف الأبوة، والغذاء والأمن والتربية. ثم هو الحضن الأوسع الاجتماعي الضروري: الشعب والقبيلة والقوم. هذا وضع فطري، يبقى فطريا إن ارتقى بالإنسان إلى نضج التعارف والتعاون، ثم إلى كرامة الانتساب للّه عز وجل باكتساب التقوى والعمل الصالح.

(1) سورة الحجرات، الآية: 13.

أما إن انتكست المسيرة، وتكبرت الأسرة على الأسر، والقبيلة على القبائل، والقومية على القوميات، والشعب على الشعوب، واستبدل بالتعارف التشاحن، وبالدخول في السلم الدخول في حرب العصبيات، ولم يتمكن الإنسان في هذا الواقع المنتكس من اقتحام العقبة إلى اقتسام الكرامة الإنسانية مع بني الإنسان، وإلى التميز بالأكرمية مع المتقين والأتقين، فإن ذلك فساد للفطرة، وتكون الأسرة والشعب والقومية عشّاً موبوءا تتوالد فيه مبيدات الإنسانية، وقاتلات المروءة، والتناكر والعدوان، والعداء في ذات الطاغوت الأسري القومي.

جاء في الأثر أن رسول اللّه ﷺ قال: «يقول اللّه تبارك وتعالى يوم القيامة: يا بني آدم، جعلت نسبا، وجعلتم نسبا، فقلتم فلان بن فلان. وقلت: إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم، فاليوم أرفع نسبي وأضع نسبكم». ابن آدم ملتصق بالأرض وبحقائق النشأة الأرضية، فهو فلان، لا فكاك عن تسلسله البيولوجي وما يحمل من مخزونات الأجيال الوراثية، وما تجمع فيه من خصائص الجسم والذكاء والاستعداد. الله عز وجل فطره على هذا، يد اللّه عز وجل صنعت وخلقت، اللّه عز وجل جعل هذا. لا تعني نسبة الجعل لبني آدم في الحديث أن لابن آدم أي اختيار في خروجه من صلب أبيه فلان ورحم أمه فلانة. لكنه إن وقف عند جسمانيته، وحجبه النسب إلى أبويه وقوميته عن مخلوقيته، وعن غائية خلقه الذي ينسبه إلى ربه تبارك وتعالى بالعبودية والطاعة، والإحسان في العمل، والتطلع الإحساني إلى معرفة ربه ونيل الكرامة عنده، ونيل الأكرمية والكمال، فجعله هذا وتوقفه وانحجابه تردٍّ عن العقبة، وإخلال بالوظيفة السامية للإنسان، وإفساد في الأرض.

العالمية والقومية

كان تنوع القوميات في تاريخ الإسلام بعد فترة النبوة والخلافة الراشدة، وتنافسها على السلطة منذ التكتل الأموي القبَلي الذي حزب إلى جانب البلاط يمنية الشام ليشتد بها أزر أسرة مستكبرة، مظهرا لهذا الانتساب المنتكس.

حارب رسول اللّه العصبية القبلية بكل مظاهرها دون أن يتنكر للانتساب الفطري. كانت تدخل القبائل في الإسلام فيؤمر عليه الصلاة والسلام عليها أميراً منها ولا يمس تركيبها. المنتظر أن يدخل التركيب القبَلي جملة في الإسلام، وأن تتخلله روح الأخوة في اللّه، أخوة انتساب كل مسلم إلى اللّه عز وجل بالتقوى والعمل الصالح، فترتفع القبيلة كلها من حضيض العصبية التي كانت سَدى السياسة الجاهلية ولُحمة اقتصادها، ومحور حربها وسلمها، إلى آفاق عالمية أخوة الأمة، وتضامن الأمة، وهما دعوة معروضة مفتوحة على بني آدم كافة، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى.

في السنة الثامنة من الهجرة، عند فتح مكة، دخل جيش النبي ﷺ أم القرى معبأ قبيلة قبيلة، ومع كل قبيلة لواؤها، وعلى رأسها قائدها. وهو ﷺ في مقام عرض قوة الإسلام العالمي، لا قوة القبائل القومية. لم ير ﷺ بأسا من تصنيف جيش الإسلام تصنيفا قوميا، إجرائية عملية، وحفاظا على تكتل واقعي يراد له أن يرتفع جملة إلى عالمية الانتماء الإسلامي، وتخويفا لعدو لا يزال يفكر على مستوى

بأس القبيلة، ووحدة القبيلة. كانت في ذلك العرض التاريخي العظيم الكتيبة الخضراء وحدها، وهي الأكثر سلاحا وبأسا، والأعظم إيمانا، تخرق حواجز القبيلة. كانت تجمع المهاجرين والأنصار رضي اللّه عنهم.

هل زال الشعور القبلي بعد وفاة رسول اللّه ﷺ؟ هل ماتت العصبية الجاهلية؟ هل اكتملت التربية؟ أسئلة سكونية تقدر أن العصبية والشعور القومي والتربية أشياء وأحداث تقع أو لا تقع. ليست هذه المعاني ماهيات تلصق بالإنسان، ولا هي في مكتسبات يستولي عليها الطالب فهي له ملك. الشعور القبلي والتعصب القومي غرائز مركبة في الإنسان والجماعة، هما من عناصر العقبة منظوراً إليها في انحدارها. والتربية التي تقاتل هذه الغرائز المرضية جهد يجب أن يبذل على كل الجبهات الحيوية، فالكينونة من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة هدف دائم يتحدى إرادة المؤمن، ليرتفع إلى اللّه، ليقتحم إليه العقبة، مغالباً التيار الهابط الذي يرده إلى نسبته السفلى.

في عز المجتمع المدني إثر وفاة رسول اللّه ﷺ كان حوار في السقيفة بين المهاجرين والأنصار، فنبضت نبضة بشرية لما قال قائل: منا أمير ومنكم أمير. في تلك اللحظات الفاجعة، والقلوب منكسرة لفراق أحب الناس وأطهر الناس وأسمى الناس، لم تغب النسبة الأرضية، بل نطق بها اللسان، واقترحت في الميزان.

لكن ما لبثت هذه النزعة أن ذهبت، وما لبث الذين آمنوا وتواصوا بالصبر عدداً وعُدة وسلاحا، وتواصوا بالمرحمة في اللّه

رحما ونسبا، أن قاموا يذبون عن عالمية الإسلام لما ارتدت قبائل الأعراب المنتكسة في انتسابها القومي. منعت هذه القبائل الزكاة أن تؤدى للأمة. يعني هذا أن العامل الاقتصادي كان الاعتبار الحاسم الذي أيقظ العصبية وسلحها. تضامن قبلي متقلص في وجه إرادة عالمية محررة.

بعد استواء الملك العاض على الحكم أصبح التضامن المتقلص في القمة والدعوة الإسلامية العالمية تركد في المجتمع الساكت تحت الوطأة. أو تقوم مطالبة، أو يثور تضامن منافس، أو حلف أقوام. هذه هي الوتيرة التي فصّلت تاريخ المسلمين الداخلي.

ما هو التركيب الاجتماعي الأمثل المطابق للإسلام؟ أما النموذج العملي المعياري فهو المجتمع الذي بناه رسول اللّه ﷺ. ليس نموذجا بنخيله وحيطانه، وبساطة عيشه، وفروسية رجاله، وجمال سفره، وسيوف جهاده، كما يحلو لبعض الفاكهين أن يضحكوا ممن يتأمل ذلك النموذج الخالد. الخالد بالتربية التي رفعته من حضيض النسبة الأرضية إلى أوج الانتساب للّه تعالى، الخالد بالاقتحام الإيماني الذي وصله بمصادر القوة الإيمانية، وأوصله إلى أوج الانتساب للّه تعالى، وأوصله إلى الاعتزاز بالله عز وجل بدل الاعتزاز بالآباء والأجداد. الخالد بالدروس الإنسانية، والسياسية، والجهادية، التي أثلها لنا لنتعلم من آيات اللّه فيها وفي الكون والتاريخ البشري عامة حدود الإنسان في فرديته، وحركيته في انتمائه، واستيلاء النخوة القومية عليه، وما يصعد هذه النخوة حتى تصبح دافعا ساميا، أو يمكنها في النفوس فتستحيل نعرة مدمرة.

إن من ينظر إلى المستقبل ويفكر للمستقبل، والمستقبل بيد اللّه عز وجل تؤدي إليه جهودنا ونحن مسؤولون عن نتائجها، يمثل أمامه مشهدان تاريخيان: العرب أول عهد الإسلام، والعرب اليوم. على أي مجتمع دخل الإسلام، بل في أي مجتمع برز؟ معرفة ذلك التفاعل الأول علم ضروري لتَنْهيج الحاضر والمستقبل.

دون الحنين إلى خيال العروبة في مهدها، وفي وارف بساتينها الثقافية، واقع دموي جاهلي تحكمه العصبية، ويحركه الحقد، وينتج عنه الفوضى، وتهدر فيه الحرم، ويستعبد فيه الإنسان. الروح الجاهلية كانت حقيقة شوهاء زيَّنَتْها في خيال القوميين العاطفيين المقتنصين للهوية الضائعة لغة مجيدة، وشعر يرفع للعلا مكارم الأخلاق، والفروسية، والشجاعة، والكرم. الروح الجاهلية لم تمت. وهي تلبس في لبنان التمزق، لبنان القناصة والأحقاد والعشائر والخيانات، لباسا عصريا، وتركب سيارات، وتفتك بالرشاش والدبابة بدل الرمح والسيف. أي كرم، وأية شجاعة، وأية فروسية لا تزال تكمن في العرب الطائفيين القوميين بلبنان التناقضات، وفي عرب القومية الاشتراكية الوحدوية؟ بل أية بلاغة عربية تحمل إلى تلك الآذان، إلى ذلك الوعي الذي أودى به الانفعال وتاهت به الأحلام، رسالة العالمية، رسالَة التحرر، رسالَة اقتحام العقبة وفك الرقبة إن لم تكن بلاغة الإسلام، ورسالة الإسلام؟

حسن الصحبة

إن مما جُبل عليه البشر أن يجدوا هويتهم في البيئة الجغرافية التي فتحوا أعينهم عليها وفي الإلف الأسري، والشمل العشائري، أو القومية التي تقوم مقام العشيرة في المجتمعات المتطورة التي اندمجت وتوارت منها المعالم القبلية. هذا الانتماء الجبلِّي العاطفي العام في البشر قد يبقى عفويا، وقد تلتقطه الحزبية السياسية، فتستثمره وتوجهه وتستنبت منه عصبية خاصة طلائعية، تحافظ على ماض ومجد ضاع، أو تستأنف مطالبة لهدف مرجو، رجعية أو تقدمية، محافظة أو ثورية.

بالانتماء العفوي يتعرف الفرد إلى نفسه، وتتعرف الجماعة إلى نفسها بالتقابل النسبي مع هوية أخرى، مع نفس أخرى، مع قوم آخرين. هذه أسرتي تميزني عن الأسر، هذا وطني بين الأوطان، هذه قوميتي. وبالانتماء الحزبي، ذي التكتل المنظم، والإيديولوجية إن كانت، يتعرف الفرد على طموحه المستقبلي، وعلى ماضي مجده، ويتعرف الحزب على ساحة الصراع وما فيها من أضداد. كل ذلك لا يرفع قيمة الإنسان وقيمة المجتمع، عفويا كان أم منظما موجها، أعلى من النسبية بين البشر في التنافس الاقتصادي والسياسي، والوجاهة الاجتماعية والرئاسة والسلطة، وأقصى ما يبلغه هذا الانتماء الطموح إلى الهيمنة على مصير البشرية، والاستعلاء على الجميع. ألمانيا فوق الجميع، هذا كان شعار القومية النازية.

نحن مستقبلا بحول الله بصدد إعادة تنظيم الجماعة نواة الأمة، وإعادة تركيب المجتمع المسلم على قواعد الولاية الجهادية والولاية الإيمانية، والنسبة لله عز وجل. نحن إن شاء الله بصدد إعادة النظم الفتيت لعقد الأمة، ومعنا النموذج الأول، ومعنا كتاب الله عز وجل، وأمامنا القومية الناشئة لا تزال، والناشئ أصلب عودا من الشائخ. أمامنا النداء القومي المتأجج عاطفة وحماسا، حوله يلتم القومي القومي، والقومي الماركسي، والماركسي القومي. والرهان بيننا جبلية الانتماء، والشراكة في نفس الماضي العربي فيما يخص القومية العربية، ذلك الماضي المتألق الذي ننتمي إليه وينتمون، كل من وجهته وحسب تفسيره. والإشكالية التي تنتظر الجواب والحل هي: كيف نجلب جماهير الأمة، المختلفة القوميات، العفوية منها والمنظرة المنظمة، من أحضان الانتماءات النسبية، ليسمعوا نداء الإسلام، ويرتفعوا إلى الانتماء المطلق الذي تدل عليه كلمة: «مسلم»؟

لقب «مسلم» يضعك مباشرة في مدار آخر غير مدار القومية. أنت مسلم لله. أسلمت له. تنتسب له بالعبودية، وهذا لا يقتلعك طبعا من الانتماءات الأخرى الجبلية والضرورية، إنما يحررك من عبوديتها المعنوية، ويملي إسلامك لله عليها حدودها ووظيفتها.

الجواب على الإشكالية نلتمسه في التربية. لا يطرح في التحزبات السياسية أي مشكل أخلاقي تربوي عقدي كما يطرح في التحزب لله عز وجل. الناس هناك تقتنع بفكر، وتتعهد بانضباط ثوري مهدد، ثم الممارسة وجدليتها.

في التجميع الإسلامي لا تكفي العقيدة والنظرية، لا بد من تربية أهم أهدافها وأسبقه رفع همة المؤمن من النسبي إلى المطلق. والأرضية الاجتماعية في غالبية الجماهير طبقات متراكمة على مر التاريخ من عفويات، وفي الطبقة المتعلمة ركام ثقافي فكري العنصر الغالب فيه الوطنية والقومية والأصالة والتحديث والتنمية.

تتضاعف الصعوبة أمامنا من كون التكتلات النسبية ذات الأهداف السياسية والطبقية المحدودة لها فاعلية وتأثير في الواقع، فمن يصحبنا على درب الجهاد لا ينبغي أن تفصله النسبة لله عز وجل المترتبة على التقوى والعمل الصالح عن واجبات الفاعلية والتأثير والصراع اليومي الدائم. وإلا انحذفت الحركة الإسلامية في الأجواء العليا، وفقدت مواقع أقدام على الأرض. كيف الجمع؟ كيف يكون إسلامنا لله رافعا معنويا ومؤثرا عمليا معا؟

شبيه موقفنا بموقف البعثة النبوية من كون المجتمع المراد تغييره أرضي الانتماء في الجملة. عبارة «في الجملة» هذه تستثني شرائح اجتماعية واسعة هي على إسلامها الموروث الفردي غير المؤثر، وعبارة «أرضي الانتماء» نتحاشى بها استعمال كلمة «جاهلي الانتماء» لما في إطلاق اسم الجاهلية على المسلمين، ولو كان الفسق سائدا والردة فاشية والحكم جاهليا، من فتحٍ خطيرٍ لذرائع الفتنة.

لهذا الشبه، ولوحدة الهدف، لا يصح أمر التجديد الإسلامي إلا بما صلح به أمر التأسيس الإسلامي. وحسن الصحبة مفتاح الموقف اليوم وغدا كما كان في العهد الأول. حسن الصحبة يعني حسن التربية، يعني أولويتها، يعني أخذ الفرد بالإحسان، واكتنافَه

بالصحبة، ورفعه مع الجماعة، وصونه في محضنها، وإشراكه في حيويتها الإيمانية، وأخذه عاطفيا وعمليا، وقلبيا وعقليا، في السفر الجماعي من أرضية الانتماء إلى سماويته، من قطرية القومية ومحليتها إلى عالمية الإسلام.

إن القومية، عربية أو عجمية، رباط جديد مصطنع مستورد في بلاد المسلمين. إنه في نظر قادة القومية العلمانيين بديل عن كل دين، بديل عقلاني مصلحي أرضي انفعالي عنيف. تكتسب القومية خصائصها العقلانية المصلحية الأرضية من الإيديولوجية القومية المتبناة المستوردة، وتكتسب العضلات والعنف من الانفعالية الموروثة، ومن المواقف السياسية القومية التي سلحت أمس العربي ضد التركي، والبنغالي ضد البنجابي، وتسلح اليوم بشكل أفظع وألعن العربي ضد الإيراني.

أيكفي أن نرفع شعار الإسلام والسلام والأخوة وحسن الصحبة في وجه المارد القومي الفاتك؟ هل نجد فسحة السنوات الثلاث عشرة التي خصصها رسول الله ﷺ لتربية أصحابه الكرام لا يحملون طيلتها أعباء المقاومة والقتال؟ هل تتركنا تهويشات الصراع الداخلي والخارجي وتشويهاته لنتفرغ ريثما نعقد عهد حسن الصحبة ونربط العلاقات الإيمانية الإسلامية؟

على محك الكيف العملي، على معيار الممارسة، توضع مبادئنا كلها، ومنها حسن الصحبة فيما بين أعضاء الكيان الإسلامي الزاحف. لا يكتمل عملنا إلا إذا أحسنَّا أيضا، وفي نفس الوقت، وعلى مدى مراحل التغيير الإسلامي، صحبة الدعوات المضادة والمنافسة،

المسالمة والمقاتلة. نقابل كلا منها بما يليق، بما شرع الله عز وجل لا بما يستفزه من كوامن انفعالاتنا عنف الآخرين. ولسنا بمستطيعين اختيار الظروف التي نواجه فيها الواقع ونقتحم فيها العقبة، ولا بقادرين على إيقاف عجلة الأحداث وتكييف سردها، ولا بناجحين إن ظننا أن الكائن الإسلامي يفيد يوما ويؤثر إن بدأنا برعايته وتأليفه في ظل الخفاء والأمن الكاذب الخطير في أحضان السرية. كل كيان عضوي لا يصبر على شراسة الصراع سيفنى لرخاوته. كلمة حكمة، لا علينا إن استغلها بالباطل أصحاب نظرية «النشوء والارتقاء».

لنترك الآن، إلى رجعات إن شاء الله، شأن التربية وكيف تتزاوج مع المقاومة. إن هذا التزاوج من أهم ما يتوقف عليه الفوز بثمرات النصر في الدنيا والكرامة في الآخرة.

ولنذكر العناصر الاجتماعية الإيمانية الأخلاقية التي يتألف من مجموعها النسيج الإنساني لمحضن التربية، والجو المعنوي الذي يُستنشق فيه، والعلاقات الرافعة إلى النسبة العليا منه.

كنت كتبت في «المنهاج النبوي» تصنيف شعب الإيمان البضع والسبعين في فئات عشرة أولها وفاتحتها خصلة «الصحبة والجماعة» أي وجود المحضن التربوي الرافع ووظيفته. وأذكر بالأثر الذي ورد فيه قول الله تعالى: «فاليوم أرفع نسبي وأضَع نسبكم»، ليفهم ما أقصد بعبارات «المحضن التربوي الرافع».

على مدى إحدى عشرة مرحلة يتخلق المؤمن ويتقي ربه ويتكرم ويرتفع إلى النسب الأعلى. يكون حب الله ورسوله أول

ما يلوح لبادرته عند لقاء حزب الله، يرى ذلك سلوكا كاملا. إن كانت الجماعة كاملة. وهذا أفق يُطمح إليه، ولا كمال إلا لله عز وجل. ثم يتعلم عمليا محبة إخوانه في الله سبحانه وتعالى، يخرج تدريجيا من الانتماء الجبلّي الآسر إلى هذا الانتماء الأخوي. ثم يقرن هذه العاطفة الأخوية الوليدة بالصحبة العملية لإخوته، بمعايشتهم وإكرامهم ومشاركتهم. ثم يرتفع عاطفيا بواسطة محبة الإخوة وصحبتهم وعلى مثالهم إلى التعلق والتأسي بالنموذج الكامل رسول الله ﷺ، والتخلق بأخلاقه العليا الجامعة بين عظائم الأمور وبين الممارسة اليومية المتواضعة مثل حياة الأسرة. ثم يتعلم المؤمن الأهمية القصوى ويطبق واجب الإحسان إلى الوالدين. وإنها لمن عويصات التربية عندما تتعارض واجبات المؤمن المتحزب لله سبحانه الحركية مع رغبات الوالدين. لا يريد الله عز وجل للمؤمن، مهما كانت الظروف، إلا الإحسان للوالدين والأقربين بالمعروف. لا يريد أن نقطع الانتماء الجبلّي، بل نستقيه ونبني عليه ونأمل فيه الخير. ثم يستقر المؤمن في حضن التربية في بيته مع زوجه بآداب فوق آداب الألفة الجبلّية، نحافظ على تلك الألفة ونصعدها. ثم يتعلم المؤمن الإحسان إلى الجار، والإحسان باب مفتوح. بل هو فتح ومفتاح للدعوة ولتوسيع دائرة الانتماء، وجذب الأمة إلى النسبة العليا الأقرب فالأقرب. وإكرام الضيف الوارد عليك، والذي ترد أنت عليه للدعوة وسيلة أخرى رافعة. ثم يكتسب المؤمن وسط الجماعة وتكتسب الجماعة بنشاط أفرادها، الفضيلة الخلقية والسياسية بالقدرة على رعاية حقوق المسلمين

والدفاع عنها، وبإصلاح ما أفسدته ذات البين الاجتماعي وما أفسده الظلم السياسي. ومن هنا نرى أن التربية تدخل من الأبواب القاعدية لمجال الصراع، ومجال الوقوف مع المستضعفين. وتتم الملامح الخلقية التأهيلية للتربية المجاهدة باكتساب المؤمن صفة البر وحسن الخلق وهي جماع الخير، ومعقد الفاعلية الجهادية، والوجه الباسم المحبب الجذاب للدعوة. وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

النسبة الجاهلية

شعار الثورة يعني أول ما يعني الإفصاح عن نية إحداث تغيير اجتماعي يحقق العدل والمساواة، يحارب الطبقية، ويزيل ركائزها الاجتماعية لتتقوض قواعدها إلى الأبد. العقيدة الشيوعية تؤكد هذا وتبشر به. كما تؤكد أن كل الثورات التي سبقتها أدت بدون استثناء إلى إحلال استبداد مكان استبداد، وأدت إلى تحسين جهاز القمع الموروث، وهو جهاز الدولة. وزعم أساطين هذه العقيدة أن استبداد الطبقة العاملة، (دكتاتورية البروليتاريا) ستحرر البشرية (إلى الأبد) من الطغيان، وتضمحل الدولة جهاز القمع، ويتآخى الناس. فما مضت الليالي والأيام حتى غلبت الطبقة العاملة في روسيا، واستبدت، وطغت، وطورت أجهزة القمع أعظم مما كانت، وأشد مما كانت فتكا. كانت تعد بأخوة البشر تحت ظلال العدل الشيوعي، ومغيب القوميات. فما دارت الأيام دورتها حتى فندت أعمال ستالين أقوال سلفه حين رفع لواء القومية عاليا ليصد هجمة النازية، عصبية طاغية ما كانت لتصدها إلا عصبية طاغية، قومية هاجمة ما وقف لها الجيش الأحمر لحمرته، بل انهزم شر هزيمة إلى أن استيقظت، بل إلى أن أوقظت سلافية الروسي وحسه التاريخي ليدافع عن الكرامة القومية.

الإسلام وحده، وهو دين الله الذي جاءت به الرسل عليهم السلام، حمل إلى البشرية سر تغيير الإنسان، ذلك السر الذي آخى إخاء حقيقيا بين حواريي كل رسول، ومن شاء الله من أجيال بعده.

انتكست بنو إسرائيل بعد فترة الخلافة في الأرض وعهد الله، فنقض اليهود الميثاق، وتحولت اليهودية إلى مجتمع مغلق، متعصب، مستكبر، مستعل على ما ضرب عليه من الذلة. والآن قامت دولة اليهود، دولة يغذيها حبل من ناس أمريكا، ويملي لها حبل من الله، لتكون في العالم نموذج التعصب العرقي القومي الديني. حشروا دينهم المزور مع تعنتهم القومي. ويحاول علمانيو العرب، ومنهم من يزعم أنه مسلم يعتز بالإسلام وينتسب إليه، أن يؤلفوا بين متناقضين، بين القومية والإسلام، أي بين الجاهلية والإسلام.

كان إسلام سيدنا عيسى عليه السلام دعوة للأخوة بين البشر، شهد الله عز وجل بالرأفة والرحمة لأتباعه. وبقيت الرأفة والرحمة آثار منها، حتى في دين النصرانية الذي احتفظ رغم التزوير والشرك بنسمة من عبير الإسلام الأول. تآخت أوروبا يومها تحت لواء النصرانية: كانت النصرانية رباطا داخليا لا يعرف الميز القومي، ويخفف من وحشية التسلط الإقطاعي. فلما استأسدت النصرانية، وتكتلت في وجه الإسلام المنتشر، وعدت على المسلمين وارثي رسالة الأخوة العالمية في هجماتها الصليبية، انكسرت روح تلك المجتمعات، وانعكست الكراهية الموجهة للخارج على البنيات الداخلية، ونشأت العصبيات القومية التي غذاها وقواها الزحف الاستعماري. فتلك اليوم قواعد الجاهلية مرساة فيهم، وأبرز مظاهرها العنف.

يقول قائل الجدلية المادية والتاريخية: ما هذا الكلام؟ أية مثالية حالمة؟ أي غوص على معانٍ لا تلمس باليد؟ أي فهم خيالي

للتاريخ؟ أين الاقتصاد؟ أين الصراع بين الأضداد الاجتماعية؟ وهل كان للرحمة والرأفة والأخوة وجود إلا أن يكون هدنة في غضون الحرب الأبدية بين الأغنياء الأقوياء الأسياد وبين الفقراء المستعبدين المسودين، أو أبوية إحسانية خيرية من أبويات «أفيون الشعوب»؟

طالما لعبت المادية بالمزاج العقلاني لمنظري الشيوعية الحالمين الذين يزعمون أنهم أفضل من تعلم من دروس التاريخ. وقد هبت رياح التاريخ على الدولة الاشتراكية الثورية السوفياتية من لدن ميلادها فأصابت الأدمغة العبقرية، خاصة دماغ ستالين وما ستالين بدع في الجاهلية، وألهمته أن أقرب طريق لانتصار الشيوعية وأهم وظيفة لاستبداد البروليتاريا يتمثلان في تعزيز جهاز القمع، وبث الرعب والوشاية والنفاق والشك في المجتمع الداخلي، وإنهاض القومية الروسية لإخضاع القوميات في الاتحاد السوفياتي، ولمواجهة القومية النازية دفاعا، والعدوان على العالم هجوما.

قلة ممن عمقوا النظر العقلي، واستمعوا للأنين الإنساني، وتأثروا لآلام البشر، واستقصوا الآفاق الجاهلية فعرفوا حدودها، تجمعت لديهم عناصر الحكمة، وهي الفكر الواضح والإحساس الإنساني، فرفعوا صوتهم ينادون ويستصرخون الأخوة بين البشر، يبحثون عن روح لهذه الحضارة المادية الجاهلية القاسية. أما رجاء جارودي فهو لا يزال مع إسلامه المعلن يحتفظ بإصرار على ماركسيته «الجزئية»، ولله في خلقه شؤون. أما جارودي هذا، وهو فيلسوف مرموق، كان ولا يزال، في الماركسية، فإنه ينشد الحضارة الأخوية، ويراها لا

سبيل إليها إلا عن طريق ما يسميه بالمفارقة **Transcendance** يعني الألوهية والإيمان.

ويقول قائل القومية المنتصرة، لا قوميات المسلمين المهزومة، قائل أوروبا وأمريكا: لا بأس أن تعانوا أنتم الأمم المتخلفة من فوران قوميتكم الناشئة، ولا بأس أن تتحدثوا عنها وعن آلام مخاضها. إنما أنتم أطفال في هذا الميدان كما أنتم أطفال في غيره. والطفل يحلو له أن يلعب بخيال يعوضه عن عالم الكبار. أحلام صبيانية يوتوبية هي «الأخوة بين البشر». منا أيضا شعراء حالمون لا واقعيون يقولون بمثل ما تقولون. لهم عندنا متنفس في جمعيات الرفق بالحيوان الخيرية، وجمعيات حقوق الإنسان السياسية، ومنظمات الغوث الدولية، بل وأحزاب «الخضر» المدافعين عن سلامية البيئة. كل أولئك نشاطات هامشية، مندمجة، مقبولة عندنا لا تضر بالسير العام العقلاني لمجتمعاتنا، بل تهب من قِبَلها نسمات عاطفية تزعمون أنتم الأمم الطفلة أنها تعبر عن ضمير الإنسانية المكبوتة. ترددون نفس شعارات شعرائنا الهامشيين الأعزاء. أما أن ترفعوا هذه الكلمات الضخمة: الجاهلية، العصبية فلا ضير. وما هي إلا عبارات في الهواء، لا تجرح شعورا، ولا تُنكي مثل تعبيرنا بالإمبريالية والاستعمار الجديد. ما كان ضرنا حديث بعضكم عن «الشيطان الأكبر» لو بقي الأمر كلاما وفلسفة، وما كان ليصبح لكم عندنا وزن لولا إرهابكم ومتفجراتكم وفرقكم الانتحارية التي طردتنا من بيروت وطردت إسرائيل من لبنان.

تحدثوا ما شئتم عن الأخوة بين البشر، وعن نقيضها الجاهلية، فنحن لا نرى ولا نعتبر إلا ما تفعلون. احلموا ما شئتم وامضوا في فلسفتكم القرونية. عيننا على «التعصب الديني»، هذا الإسلام المتفجر الذي يهدد مستقبل العالم ويهدد الاستقرار الدولي الذي بذلنا في تشييده الجهود والأموال. ماذا تفعلون وأنتم عزل أو تكادون، فما القصة إن أصبحتم أمة مصنعة، إن امتلكتم التكنولوجيا، إن تسلحتم بالذرة والإلكترون؟!

العصبية بحروف نارية أنتم، والباقي كلام طفولي. وتحليلكم الروحي للتاريخ هراء لا معنى له عندنا لولا ما نخشى أن يترتب عليه من تصعيد التعصب الديني وتسليحه، نظير التحليل المادي الماركسي الذي استعمله الروس لحظة لبناء الهيكل المهدد الآخر.

أنتم والشيوعية عالميتان خطيرتان على الحضارة، أنتم أخطر ولا شك، فمع الآخرين لنا تاريخ مشترك، وفكر مشترك، وقسمة للعالم وتوازن. وأنتم أنتم العصبية المخربة.

هذه لفتة تَسمُّع لما يمكن أن يقال عنا، وزبدة هذه اللفتة أن المجتمع الأخوي والإيمان بالله عز وجل، وهو شرط وجوده، هما الطلب المتلجلج في ضمير الإنسانية الشقية ببعدها عن الله عز وجل، المتردية بانتكاسها في النسبة الأرضية القومية وفي المادية الملحدة المستمتعة الأنانية. مطلب يتلجلج، وتعبر عنه ألسنة فلاسفة الغرب الطلائعيين مثل جارودي المسلم، أو تتنظم لملاحقة شبحه الجذاب منظمات ترفض عنف الحضارة الغربية وقسوتها وأنانيتها.

جارودي استنتج ضرورة «المفارقة» كما يطلق مصطلحات نشأ عليها، باعتبارها شرطا لإحلال الأخوة بين البشر، وتعويض العلاقات الإنتاجية الرأسمالية البضاعية، والعلاقات الاشتراكية التي بقيت بضاعية، بل زادت في هذا المعنى على ما كانت عليه في المجتمع الطبقي المعترف بطبقيته.

في منطقه الذي يعذر فيه مؤقتا ريثما يعمق إيمانه، هدانا الله جميعا لما يحبه ويرضاه، يطرح السؤال هكذا: ما مكان الألوهية في حياة البشر؟ الجواب داخل المنطق المقلوب: مكانها ووظيفتها أن تتغير نظرة الإنسان للإنسان ليتآخى البشر، وليحي الخلق في مجتمع أخوي ليس فيه شيء من آفات الحضارة المادية التائهة.

هذا المنطق المعكوس أخٌ صنوٌ لمنطق الإسلام السياسي، وهو منطق نجده حتى عند بعض الحركات الإسلامية. يقول هذا المنطق: الإسلام لماذا؟ فيجيب نفسه: الإسلام لتقوم الدولة الإسلامية الحرة العادلة الموحدة القوية. النسبة لغير الله عز وجل تترصد كل مسلم حديث الإسلام وقديمه، لكثرة ما يصحب الغافلين عن الله عز وجل، ولطول ما يعافس الدنيا ومشاكلها اليومية، وأفكارها وعداواتها وصداقاتها وتناقضاتها. تتضاءل عنده مكانة الألوهية، فتدخل الألوهية في نسبية مع همومه وآلامه وآماله، فإذا الألوهية وظيفة من وظائف حياته، ملحقة به قابعة هناك في أعماق ما، لا وجه لها ولا نور «ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور».

كم مرحلة من مراحل التربية والتحزب لله تعالى وذكره وعبادته وتقواه وحبه وحب رسوله ﷺ يجب أن يسلكها المؤمن وتسلكها

الجماعة حتى تصفو النظرة الإيمانية التي تضع العبد مكانه الحقيقي، مخلوقا مكلفا من لدن رب خالق، مرزوقا، مماتا، مبعوثا، محشورا، مسؤولا مجازى في جنة أو نار؟

نسبيات العالم ترهق الإنسان عن عبوديته، وتغل رقبته؛ وتوعر عقبته، فمن له بتحرير قلبي عقلي يفك وثاقه ليرتفع إلى اعتبار كل من خلق من ذكر وأنثى، إلى الشعوب والقبائل، إلى الخلق كافة والإنس والجن، وحدة مخلوقة لا فضل فيها ولا تفاضل إلا بالتقوى، ولا كرامة إلا بالعبودية لله عز وجل؟ هذا الارتفاع يتجاوز بك حدود الواقع المليء بالعصبيات والقوميات يتجاوز بك العالم حتى تمتلئ إيمانا فترجع على الواقع تجاهد في سبيل الله لتكون كلمة الله التكليفية هي العليا، غير ساخط ولا متشنج أمام تناقضات العالم وعصبيات المجتمعات وتدافعها التي جعلها الله عز وجل فتنة وامتحانا. ذلك الارتفاع يرقى بك إلى الاستماع بالقلب المطمئن والعقل المتجلل بالسكينة المتحفز للتنفيذ إلى قول الله عز وجل: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾[1]. لا إله إلا الله الحليم الكريم، سبحان الله رب العرش العظيم، الحمد لله رب العالمين.

(1) سورة الذاريات، الآية: 56.

عُبَيّة الجاهلية

قال رسول الله ﷺ وهو يخطب في أصحابه: «يا أيها الناس، إن الله قد أذهب عنكم عُبَيَّة الجاهلية وتعظمها بآبائها. فالناس رجلان: رجل بَرٌّ تَقي كريم على الله تعالى، ورجل فاجر شقي هين على الله تعالى»، رواه ابن أبي حاتم. عُبَيَّة بظم العين وفتح الباء والياء المشددة هي النفخ والاستكبار. وقال ﷺ: «كلكم بنو آدم، وآدم خُلق من تراب. وليَنْتَهين قوم يفخرون بآبائهم، أو ليكونُنَّ أهون على الله من الجُعلان»، رواه ابن كثير في تفسيره. الجعل هو خنفساء البيت المسمّاة بأبي جعران. مبالغة في تحقير من تعاظم واستكبر بنسَبه الأرضي.

الناس رجلان كما قال الحبيب المصطفى ﷺ: ذاك الذي ارتقى بالإيمان والتقوى والكرامة في نفسه والمعاملة بالبر، وهو حسن الخلق، لغيره والآخر الذي هوى إلى الأسفل بفجوره، فشَقِيَ في نفسه وكان شقاءً لغيره. الأول تطهر من عبية الجاهلية، والآخر تنفخ بها وتعاظم فحقره اللّه وصغره. أراد أن يصعد بالاستكبار، فهان في ميزان الإيمان. والحديث الثاني يذكر بني آدم بالمساواة الأصلية لكي لا يظن ظان أن النسب الطيني رافعه عند اللّه تعالى اغتراراً بالأمجاد الأرضيَّة التي علقت بأسرة أو قومية. في مجتمع إسلامي سوي ينبغي أن يكون بلال الحبشي وخبّاب القيْن الحدّاد أكرم على الأمة من حاملي الأسماء المرتعشة خُيلاء. ويمكن أن نقيس صحة

مجتمع مسلم واعتلاله باقتراب تقويمه للناس أو ابتعاده من سلم القيمة عند اللّه.

وقد بدأ الاعتلال، واختل ميزان التقوى الذي رفع أسامة بن زيد رضي اللّه عنهما، الفتى الأسود الأفطس، إلى مرتبة قيادة جيش من جملة جنوده أبو بكر وعمر. وعادت عبية الجاهلية واعتبار النسب الطيني مع القفزة الأموية على الحكم. فكانت إيذانا بدخول الأمة في دوامة التجهل، أعني التقهقر إلى معاني الجاهلية وقيمها. كل حضارة تساوي قيمتها قيمة الإنسان فيها بوصفه إنسانا، لا بوصفه سليل أسرة أو عشيرة أو قومية. ومن تنفخ الأموية واحتقارها للموالي نبعت ردة الفعل الشعوبية. انظر ابن خلدون في تحليله للعصبيات والعصبيات المضادة يضع قدمك على الدور والتسلسل في ناعورة عبية الجاهلية، وعلى إهدار قوة الأمة في الصراعات الداخلية.

يعتبر القوميون المعاصرون الدولة الأموية نموذجا تاريخيا لانتصار القومية، ويعتبرون عهدها عهدا ذهبيا، وتعصبها للعرب وبهم مأثرة خالدة. لا غَرو، فالميزان الأرضي جامع.

أما ميزان السماء، الميزان الذي يكرم الآدمي المساوي لكل آدمي باعتبار الطينة، فإنه يرفع فقط الجهود الفردية والجماعية لتجاوز النعرات والتحلي بالتقوى الجالبة للسعادة الأبدية الأخروية، والبر والإحسان للخلق الجالبين للكرامة الدنيوية.

في ميزان السماء يعتبر المولى الوافد على الجماعة الإسلامية مرشحا آدميا للفضل والكرامة. الوَلاية بين المؤمنين هي الرباط

العام في الجماعة، والمولى الوافد مرشح للدخول لهذه الولاية عضوا كريما. فإذا بالرجعة الأموية تغلق عليه الباب وتتحول الكلمة إلى علامة التنقيص الاجتماعي، أي النبذ الكلي.

المَوْلى في الشرع الإسلامي من له ولاية العتاق، وهي العلاقة التي تستمر بين الفتى أو الفتاة الأسيرين العبدين وبين سيدهما بعد العتق، وبمقتضاها يبقى العبد والأمة على اتصال بمحضنهما وحاضنهما حتى إنهم يرثانه شرعا.

وبالمعنى العُرفي كان المستنِد الغريب أو الضعيف إلى قبيلة يعيش تحت كنفها وحمايتها يعد حليفا لها ويسمى مولى لها. ولم يحارب المسلمون هذا العرف، بل أبقوا عليه ليكون آصرة من الأواصر الجِبلية التي ينتظر منها أن تقوي الرباط العام الإيماني وتشده.

فإذا بالانغلاق العصبي منذ بني أمية يفرغ هذا الشكل التنظيمي للمجتمع من مضمونه التربوي. قد فقدت الأسرة والقبيلة من روح الدعوة والرغبة في تنشئة الفتى والفتاة الأسيرين على الإيمان، والحفاظ عليهما بعد العتق في دائرة المؤمنين، كما فقدت القدرة على إشراك المولى الحليف في حياة الأخوة الإيمانية، ودمجه شيئًا فشيئًا في مجتمع مآله المرسوم أن يصبح مجتمعا بلا طبقات وبلا خصوصيات عرقية مرضية، لولا الاعتلال والتجهل.

من سمات الانقباض القبلي القومي للعرب الأمويين، قل من أسبابه المؤصلة، التصدي للسلطة والمال من خلال العصبية لا من طريق الحق، وبالتالي إحلال طبقية تصنف المجتمع تصنيفا جاهليا

محل الأخوة الإيمانية الرامية أصلا إلى تطبيق قانون: «إن أكرمكم عند اللّه أتقاكم».

ماذا صاحَب العصبية الجاهلية من ظواهر أخرى جاهلية أرْدت الأمة إلى أن بلغت بها حالة التمزق والهوان الذي نعيشه اليوم؟ لا تفسر العصبية وحدها التاريخ، لكن العوامل الأخرى التي أدت إلى الانحطاط ما هن إلا بنات للعصبية. الملك العاض ابنها البكر ومنه تفرعت آفات الدولة، واحتقار الوافد شقيقه، ومنه تولدت الاستقالات الاجتماعية عن وظائف الدعوة. ومن ذلك النسل الخبيث، من عموماته وخؤولاته، نشأت الطبقية والظلم الاجتماعي، والتخويف والتفقير، وتعطيل الآلية السياسية الاجتماعية الكلية الإسلامية العظيمة التي عليها مدار حياة الأمة، وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

في المجتمع الإسلامي الصاعد تكون روابط الجبلّة الأسرية والعشائرية والقومية حليفة للروابط الحياتية والحرفية والاقتصادية والمدرسية والثقافية لخدمة الرباط الإيماني الولائي وتقويته ودعمه. فلما بدأ المجتمع المسلم في الانحدار أصبح الفرد في مجتمعه الذي تحكمه العصبية وبُنيَّاتها يساق مع القطيع، في أسرته، وعشيرته، ومواليه، ومدينته، وحرفته، وجيشه، إلى مصير دنيوي يهبط من هين إلى أهون. عقم الوسط الاجتماعي من مخصبات الدعوة والتربية بعقم الجهاز الحاكم من مخصبات الحق والحرية والمسؤولية. وفي المساجد وبيوت العلماء العاملين ومجالس الإيمان انزوت الدعوة، فحافظت لنا كلَّ هذه القرون على روح الإيمان. ووجد المسلمون

في ظل المسجد وحلقه الواعظ ودرس العالم ملجأ، واتخذ إلى ربه سبيلا من حرص على مصيره الأخروي من طريق جانبية بعد أن طلقت الدولة الدعوة واختصم السلطان مع القرآن.

إننا نعيش في عصر التكنلوجيا، يواجه الإنسان الآلات، ويعايشها، ويغاديها ويماشيها. جارودي ومن جرب تجربته يصرخون من تحول الإنسان في العالم المصنِّع إلى آلة تتفاعل مع آلات، ويستصرخون من يدلهم على الأخوة الاجتماعية وعلى الألوهية. كثير من الغربيين الأشقياء بوسطهم التقني، بعمارة الإسمنت المسلح، بالتلوث والصخب وتراكم الأشياء، يتهافتون على مجتمعات بشرية بدائية علهم يروحون رَوْح الفطرة. ولم يعد الوسط الاجتماعي في بلاد المسلمين، الذي يغري السواح «الروحيين» بعتاقته، هو المركز الإشعاعي للإيمان كما كان ذات يوم. يكونه إن شاء اللّه قريبا بعد أن يتجدد وتنتظم فيه وظائف الدعوة والتربية بانتظام وظائف الدولة على قيم الكرامة والتقوى، بعد ذهاب الجاهلية العصبية أم الخبائث.

ينبغي أن ينظف المجتمع الإسلامي من دعاة العصبية، فهم ليسوا منا بالنص القاطع. قال رسول اللّه ﷺ: «ليس منا من دعا إلى عصبية، وليس منا من قاتل على عصبية، وليس منا من مات على عصبية». رواه أبو داوود. رُوح الإسلام ورَوْحه لا يجدهما مجتمع فشت فيه ريح العصبية ونتانتها. عن جابر بن عبد اللّه رضي عنه قال: «كنا في غزاة، فكسع (ضرب) رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال الأنصار: يا للأنصار!» فقال المهاجرون: يا للمهاجرين! فقال النبي ﷺ: «دعوها فإنها مُنتنة!» رواه البخاري.

إن التركي الذي اضطهد العربي فقام العربي غاضبا لكرامته ليس هو التركي المؤمن، بل هو التركي القومي، جاء بها منتنة من الجاهلية الألمانية، وعمقها في أساطير طوران وخرافة الذئب الأشهب. وإن العربي الذي هاجم إيران الإسلامية ما هاجمها من موقع إسلامي، بل فعل من موقع بعثي يعادي الإسلام باطنا وإن كان يحرق له البخور ظاهرا. والبنغالي المتعصب في حزبه القومي ما حارب المسلم البنجابي، لكن حارب الأثرة القومية، حارب عُبية الرجل الأبيض الشمالي آكل القمح الذي يحتقر الأسيوي النحيف آكل الأرز ويظلمه. دعوها فإنها منتنة، ولنتناصر في الحق. كانت العرب في عصبيتها ترفع شعارا يلخص روح العصبية ويوجز مستلزماتها في قول القائل: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما»: تعصب ضد الحق مع القومية. أخوك هو العربي قبل كل دين! وليذهب مليار مسلم ونيف إلى الجحيم إن رضي حفنة من النصارى الذين استبدلوا، ولما يشعر القومي المسكين، ببرنامج القومية برامج طائفية. بدّل الاسلام روح ذلك الشاعر الجاهلي، وحوله من خدمة العصبية والباطل إلى خدمة الحق والتآخي في اللّه. نطق النبي ﷺ يوما قال: «انصر أخاك ظالما أو مظلوما». عرف المؤمنون الصحابة المقال لعهدهم به وهم العرب الأقحاح، لكنهم لم يدركوا مغزى استعماله الإسلامي. فسألوا النبي ﷺ: «يا رسول اللّه! هذا أنصره مظلوما (يعني أفهم كيف أنصره مظلوما)، فكيف أنصره ظالما؟» قال ﷺ: «تمنعه من الظلم فذلك نصرك إياه». هذا حديث متفق عليه.

عرب قبل كل دين!

هذه الصرخة نفّس بها جمال الدين الأفغاني رحمه اللّه عن لواعج هزيمته في أخريات أيامه، بعد مكثه في مصر تسع سنوات نفخ فيها من روحه الثورية في جماعته. غادر مصر إثر إخفاق الثورة العُرابية مع صفيه محمد عبده رحمهما اللّه. وبعد فترة لندن وباريز وإصدار «العروة الوثقى» تردد بين إيران وشبه الجزيرة العربية وموسكو حتى استطاع السلطان عبد الحميد أن يستقدمه إلى الأستانة سنة 1892 ميلادية. هنالك في العاصمة عاش خمس سنوات محاطا برعاية السلطان، وبالرقابة المعلومة.

وجد نفسه هذا الرجل القوي الشكيمة في قبضة الدولة التي طالما أهاب بها لتنهض وهو إلى جانب اليأس أقرب منه إلى جانب الرجاء. فلما تمكن من أذن السلطان راودته فكرة إصلاحية. رجع من ثوريته كرها كما رجع محمد عبده بعد عودته من المنفى. فحاول أن يساهم في المعركة القائمة يومئذ بين السلطان و«الفتيان الترك» من جمعية «الاتحاد والترقي». كان هؤلاء يريدون تتريك العرب وسائر السلطنة. أي كانوا يرمون إلى هدف معاكس الاتجاه لهدف السلطان الذي كان يدعو للوحدة الإسلامية، المرتفعة فوق القوميات، الجامعة لأشتاتها. وكان قد نظم في محاولته الترميمية دعاة يوجههم الشيخان أبو الهدى الصيادي والمدني التونسي رحمهما اللّه.

كانت العلمانية الطورانية يومئذ غريمة للتيار العثماني الإسلامي. هذا التيار الأخير وقف موقف التضاد مع عبدة الذئب الأشهب،

دعاة التتريك. لِم إذن لا تتعرب الدولة التركية لتتمكن في إسلاميتها؟ لم لم تتعرب كما تعربت كل الدول التي حكمت دار الإسلام؟ لم شذت في هذا عن غيرها؟ والأسئلة وجيهة قيمة في ذلك الزمان وفي كل زمان. فما تكون العروبة بمعنى تبني لسان القرآن وتبني العرب بصفتهم أمناء الوحي السابقين، وحب العرب لسابق فضلهم ولما يرجى دائما من غنائهم شقاقا عن الإسلام أبدا. لا تكون العروبة القائمة بالإسلام شقاقا ما لم يتحزب العرب لغير اللّه عز وجل، وما لم تكن الدعوة إلى قوميتهم ندا وضرة للدعوة إلى اللّه عز وجل.

كان السلطان الصالح محمد الفاتح، فاتح القسطنطينية سنة 1453 رحمه اللّه وأجزل له المثوبة، والسلطان سليم الذي تلقب بالخلافة من بعده، تراودهما فكرة تعريب الدولة. ذكّر الأفغاني صاحبه السلطان بهاتين السابقتين، ولعله رجا بصدق أن يعالج هذا الترميم المتأخر بتعريب يقرب الترك من علوم الدين ويساهم في إصلاح ما أفسده الاستبداد المزمن وما كان يفسد إذ ذاك تناحر القوميات. وهيهات، فقد كان الذئاب الشهب قد تمكنوا في البلاد التركية يمولهم اليهود وتشد أزرهم أوروبا الحانقة على «الرجل المريض». كان لم يبق بعد وفاة الأفغاني رحمه اللّه سنة 1897 إلا عشر سنوات لتسلم القوميين الترك زمام السلطة استعدادا لقلع السلطنة من جذورها.

لنسمع الأمير شكيب أرسلان رحمه اللّه يعرض وجهة نظر هؤلاء القوميين الطوارنيين لندرك كيف جاءت صرخة الأفغاني حين قال: «نحن عرب قبل كل دين!» وجوابا على أي شيء جاءت، ووسط أية

ظروف اقترح التعريب دواء لأمراض الدولة المتحضرة. قال الأمير: «وهناك فئة ثانية تدعي الطورانية تخالف الفئة الأولى، أي الفئة التي تقول بالقومية العثمانية الإسلامية في كل هذه النظريات، وأشد دعاتها ضياء كوك الب وأحمد أغانف ويوسف آقشور (اليهودي) اللذان قدما من روسيا وجلال ساهر ويحي كمال (...). وهؤلاء يزعمون أن الترك هم من أقدم أمم البسيطة، وأعرقها مجدا، وأسبقها إلى الحضارة (دائما الترنيمة القومية، عبية الجاهلية!) وأنهم هم الجنس المغولي الواحد في الأصل، ويلزم أن يعود واحدا. ويسمون ذلك بالجامعة الطورانية. ولم يقتصروا منها على الترك الذين في سيبيريا وتركسان والصين وفارس والقوقاز والأناضول والروملي بل مبدؤهم مد هذه الرابطة إلى المغول في الصين وإلى المجر والفنلانديين في أوروبا. وكل ما يقال إنه ينتمي إلى أصل طوراني. وهم يقولون بخلاف ما يقول الأولون. فهم ترك أولا ومسلمون ثانيا. وشعارهم عدم التدين وإهمال الجامعة الإسلامية، إلا إذا كانت خادمة لنفوذ القومية الطورانية، فتكون عندئذ واسطة لا غاية. وقد غلا كثير من هذه الفئة في الطورانية حتى قالوا: نحن أتراك فكعبتنا طوران! وهم يتغنون بمدائح جنكيز. ويعجبون بفتوحات المغول، ولا ينكرون شيئا من أعمالهم، وينظمون الأناشيد للأحداث في وصف الوقائع الجنكزية ليطبعوهم على الإعجاب بها»[1].

التاريخ رصيد حكمة، والمنحدر القومي واحد. نفس الإعجاب بالأسلاف الجاهليين، نفس العداء للدين إلا إذا كان خادما للقومية.

(1) نقلا عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين»، م س، ص: 217.

نلاحظ أن الأتراك العلمانيين كانوا يقولون عكس مقالة العثمانيين المسلمين. هؤلاء يقولون: نحن مسلمون أولا أتراك ثانيا. وأولئك الأبعدون يقولون: أتراك قبل كل دين! وليفهم من شاء: أتراك بلا دين! وهذه ما صرحوا بها إلا بعد استيلاء الطاغوت مصطفى كمال على الحكم. وإن كانت العلمانية برنامجهم كما هي العلمانية البرنامج الحتمي لكل قومية. وما نهى عن عصبية الجاهلية هادينا الأمين ﷺ بذلك الإلحاح وتلك الصرامة لو لم تكن الخطر الأعظم على الدين.

ها هو إذن رائد النهضة الإسلامية الثائر الأسد جمال الدين الأفغاني، وهو في قفصه الذهبي بالقرب من السلطان، لا يقر له قرار أو يجد سبيلا لينصر القضية الكبرى التي أوقف عليها حياته رحمه اللّه. في أي سياق برزت منه هذه العبارة المدوية: «عرب قبل كل دين»؟ أهي رد مباشر على الطورانيين الذين قالوا «أتراك أولا»؟ أتمشي كلمته بنفس القوة وفي الاتجاه المضاد كما يعرّف علم الميكانيكا ردة الفعل؟ لنسمعه يقص محاولته، ولنترقب كيف صدرت العبارة.

قال رحمه اللّه: «لقد أهمل الأتراك أمرا عظيما (...) وهو اللسان العربي لسانا للدولة. ولو أن الدولة العثمانية اتخذت اللسان العربي لسانا رسميا، وسعت لتعريب الأتراك لكانت في أمنع قوة (...). لكنها فعلت العكس، إذ فكرت بتتريك العرب، وما أسفهها سياسة وأسقمه رأيا! إنها لو تعربت لانتفت من بين الأمتين النعرة القومية، وزال داعي النفور والانقسام، وصاروا أمة عربية بكل ما في اللسان من معنى وفي الدين الإسلامي من عدل، وفي مسيرة أفاضل العرب

من أخلاق، وفي مكارمهم من عادات. لكن، مع الأسف، كان عدم قبول فكرة تعميم اللسان العربي خطا بينا (...). لو أنصف الأتراك أنفسهم، وأخذوا بالحزم، واستعربوا، واتخذوا بغداد عاصمة لهم (كان شبح «الخلافة» العربية العباسية مخيما على تلك المعركة) (...) فمن كان دول الأرض أغنى منهم مملكة؟ أو أعز جانبا؟ أو أمنع قوة؟

«إنني أحزن وأتأثر كلما افتكرت بما ارتكبوه من الخطإ في عدم قبولهم اللسان العربي، لسان الدين الطاهر، والأدب الباهر، وديوان الفضائل والمفاخر، (واستبدالهم به) اللسان التركي! (...). ذلك اللسان الذي لو تجرد من الكلمات العربية والفارسية لكان أفقر لسان على وجه الأرض، ولعجز عن القيام بحاجات أمة بدوية. ولولا أنه خليط من ثلاثة ألسنة، لما رأينا للأتراك شعرا يقرأ، أو بيانا يترجم عن جنان. وهو في حالته هذه إذا وزن مع لسان من الألسنة الحية تجده قد خف وزنا، وانحط معنى(...).

«فكيف يعقل تتريك العرب، وقد تبارت الأعاجم في الاستعراب وتسابقت، وكان اللسان العربي لغير المسلمين، ولم يزل، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر. فالأمة العربية هي «عرب» قبل كل دين ومذهب! (...)

«لقد كاشفت السلطان عبد الحميد في أكثر هذه المواضيع في خلوات عديدة، ولكنه كان قليل الاحتفاء بكل ما قلته له (...) فحولت وجهي عما لا يمكن إلى ما يمكن»[1].

(1) نقلا عن كتاب محمد عمارة «تحديات لها تاريخ»، م س، ص: 240.

أخشى أن يكون قوله: «وكان اللسان العربي لغير المسلمين، ولم يزل، من أعز الجامعات وأكبر المفاخر» إشارة إلى النصارى العرب الذين كانوا في ذلك الزمن رواد الأدب العربي والصحافة العربية والتأليف العربي والأكاديمية العربية. أخشى أن تكون أخوة اللغة هنا تتعاظم لتلطم أخوة الدين. أخشى أن تكون صيحة «عرب قبل كل دين» أختا متقدمة رائدة لمحمد عبده الداعية ليأخذ المسلمون القرآن في يمناهم لآخرتهم، وما اكتشفه الأولون والآخرون لدنياهم. أخشى أن تكون المدرسة الإصلاحية كلها هائمة في ضباب القومية والعلمانية: تلك الضبابية التي انقشعت عن كلمة الكواكبي الصريحة القبيحة: «الدين للآخرة فقط» رحمهم اللّه وعفا عنا وعنهم آمين.

لولا هذه النكتة التي تبدوا لنا اليوم بشعة، ومعركتنا مع ذلك هي نفس معركتهم تجاه القومية والعلمانية وإن اختلف الزمان والظروف، لكان دفاع الأفغاني رحمه اللّه عن العربية هو الصواب بعينه، ولكان اقتراحه المتأخر بتعريب الدولة العثمانية من أكثر الانتقادات التي وجهت لهذه الدولة سددا. على أنه لا يعدو أن يكون انتقادا ترميميا، فالاستبداد الوراثي الملكي استبداد لا مكان للاعتداد به والاعتزاز، عربيا كان أو عجميا.

إن عالمية الإسلام تجر معها كما يجر الملزوم لازمه عالمية لغة القرآن. وإن المليار مسلم ونيفا، ويتزايدون أصلح اللّه وبارك، ليس لهم مستقبل أمام التكتلات العظمى التي لها وحدها الحياة مستقبلا إلا بوحدة إسلامية لغتها المشتركة لغة القرآن، لا عوض عن هذا إلا التشرذم في اللهجات القومية.

فيا قومنا العرب! لم تريدون لغة عظيمة فقط، لا تفكرون، حتى تقليدا، في نشر لغتكم في العالم لتناطح اللغات القومية؟ لم تحرصون على التزمت بعروبتكم وفي عروبتكم في الوقت الذي انكشفت فيه علمانية النصارى القومية المعلنة المطلوبة منذ قرن عن انتماء طائفي لنصارى أوروبا ويهود الغزو؟ غر أجيالا منكم أن اللسان العربي قد يكون الرباط الجامع الممكن مع تلك الأقلية التي كنتم تنظرون إليها كالنجم الثاقب في سماء الحضارة لتقدمها النسبي، فأين أنتم من عزة بالعالم الإسلامي الناهض رويدا بإسلامه، أين أنتم من عزة باللّه عز وجل وبالإسلام العظيم الذي لا يمكن بحال أن ينفك عن اللغة العظيمة؟ وإنه لا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

أفحكم الجاهلية يبغون؟

وردت كلمة «جاهلية» أربع مرات في كتاب اللّه عز وجل، فبإضافة المعاني التي وردت بها، وكتابُ اللّه حكمة، يمكن أن نجمع أطراف هذا المفهوم الأساسي في المنهاج، وأن نعطيه أبعاده الكاملة بعد أن عرضنا بحمد اللّه في فصل سابق جذر المفهوم كما يعطيه مبناه اللغوي. فالجاهلية لغة: جهلٌ باللّه عز وجل، ينتج عنه جهل بمعنى عنف. ولا يتنافى الجهل باللّه تعالى، وهو أعظم الجهل وألعنه، مع العلم بعارضات الممكنات، وحادثات المكوِّنات.

1. قال اللّه تعالى يُذكر المؤمنين بهزيمة أُحُد وما أنزل عليهم بعد الهزيمة من سكينة جاءت على شكل نعاس، فسمى السكينة أمنةً مقابل الجاهلية. قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِّن بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاساً يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾[1].

2. وقال عز من قائل في سورة أخرى يقابل حكم الجاهلية بالحكم بما أنزل اللّه: ﴿فَٱحْكُمْ بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجاً وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الخَيْرَاتِ إِلَىٰ الله مَرْجِعُكُمْ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ وَأَنِ ٱحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَن بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم

(1) سورة آل عمران، الآية: 154.

بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيراً مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَاسِقُونَ أَفَحُكْمَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْماً لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾[1].

3. وقال سبحانه في سورة أخرى يوصي نساء النبي ﷺ أن لا يظهرن بمظاهر الجاهلية، وأن ينبذن سَمْتها و«وثقافتها» وعاداتها: ﴿يٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلاَ تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلاً مَّعْرُوفاً وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلاَ تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ ٱلأُولَىٰ﴾[2].

4. وقال وهو العزيز الحكيم يُذكر المؤمنين بغزوة الحديبية، وكيف استيقظت حمية قريش وكيف انفعلت أمام خطى المؤمنين الثابتة وتقواهم: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَاهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾[3].

في الموقف الأول، في هزيمة أحد، طائفة من الصحابة رضي اللّه عنهم ثبتوا مع رسول اللّه ﷺ. وفدَوْه بأرواحهم من الخطر ساكنين ثابتين. أولئك سَلِموا من مداخلات الجاهلية، لأنهم صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه، ولم يزعزعهم الحدث المفاجئ عن ثقتهم باللّه وبرسوله. منهم أبو طلحة رضي اللّه عنه الذي كان يترس عن رسول اللّه ﷺ بجسده بعد انكشاف الناس، ويقول كما جاء عند البخاري: «بأبي أنت وأمي لا تُشْرف، (لا تظهر للكفار) يصيبك سهم من سهام

---

(1) سورة المائدة، الآيات: 48-50.

(2) سورة الأحزاب، الآيتان: 32 و33.

(3) سورة الفتح، الآية: 26.

القوم. نحري دون نحرك!» وترس عن رسول اللّه ﷺ ذلك اليوم أبو دجانة بعد أن كان بطل المعركة المُعْلَم، والنبل يتلاحق في ظهره. رضي اللّه عنه. وتَرس عن رسول اللّه ﷺ زياد بن السكن حتى قتل هو وخمسة من أصحابه. رضي اللّه عنهم.

أما الطائفة الأخرى التي لم تثبت فهم الذين تأثروا إما بالطمع في الغنائم لما رَأوا فرار الجيش القرشي أول المعركة فزالوا عن مواقعهم التي أقامهم فيها رسول اللّه ﷺ فكان ذلك سبباً للكارثة. وإما تأثروا باستفزاز اليهود والمنافقين، واستخفهم الاستفزاز عن السكينة وعن الأمنة وهي الأمن القلبي ثِقةً باللّه عز وجل.

هذه الطائفة الجاهلية المنضوية تحت لواء الإسلام، أعني المنافقين، كانوا بدعاياتهم السابقة واللاحقة السبب المباشر في كون طائفة من المسلمين ﴿أَهَمَّتۡهُمۡ أَنفُسُهُمۡ﴾ عن القضية، وعن الثبات وعن حسن الظّن باللّه تعالى. كان عبد اللّه بن أُبي رأس النفاق يقول: «لو أطعتمونا ما قتل منكم أحد!» وكان لعنهُ اللّه قبل المعركة يخذل الناس عن الخروج، قال اللّه عز وجل في حقه: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخۡوَٰنِهِمۡ وَقَعَدُواْ لَوۡ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾[1].

في موقف أحُد تتجلى سمات الجاهلية في التّهمُّم بالنّفس عن القيام بالواجب. ومعناه الأنانية وما تولدت عنه قلة الثقة باللّه عز وجل، وقلة الانضباط والخفة إلى الاستماع للمُرجفين. وتنحدر الأوصاف في سياق الآيات من سورة آل عمران إلى مشارف النفاق. في الجملة يمكن أن نقول بأن الجاهلية أنانية ونفاق.

(1) سورة آل عمران، الآية: 168.

في جاهلية الحكم بالهوى بدل الحكم بما أنزل اللّه نجد أن من سمات الجاهلية تفضيل الرأي البشري على الوحي، والزيغ عن الشرعة الإسلامية والمنهاج إلى شرعة المصالح ومنهاج الشهوة، وابتغاء الفتنة أي الكيد والمكر، لتضليل المؤمنين عن بعض ما أنزل اللّه. والضمائر في الآيات تعود على أهل الكتاب. فلو رجعنا إلى جاهليتنا المعاصرة لوجدنا أن أهل الكتاب كانوا دعاة العلمانية السابقين، والفتنة العلمانية التي زُجَّ فيها بكثير من القوميين من ذراري المسلمين تنتمي جذورها الفلسفية إلى فلاسفة نصارى هم سلف هذا الفكر. هوبز الإنجليزي النصراني دعّم الحكم المستبد الثيوقراطي الذي بمقتضاه يجتمع على رأس واحدة تاجا الدين والدولة. دعا هذا الفيلسوف المتشبع بنصرانيته، إلى «دين مدني» يتوحد عليه الحكم، لا يستمد تحت شرعيته الحاكم سلطانه من أي حق مطلق، لكن من قدرة الحاكم على إحراز المصلحة، وهي عنده السلم، ومن «عقد اجتماعي» هو أساس استبداده. وكانت السَّلم أهم مطلب في زمانه في النصف الأول من القرن السابع عشر، عصر الحروب الأهلية، واستبداد كرومويل بعد مقتل الملك. لوك الإنجليزي نظر لإسقاط الحكم الثيوقراطي من موقف مناقض لهوبز، لكن التقى معه، وهو النصراني المتشبع بنصرانيته، في ضرورة هدم الأساس الديني للحكم. روسو الفرنسي في القرن الثامن عشر، وهو النصراني البروتستانتي في أعماقه، حارب الحكم الثيوقراطي واقترح «دينا مدنيا» يعطي المجتمع رباطا عاطفيا لا تمنحه النصرانية الكَنَسيّة عدوة المجتمع.

إذا كانت جاهلية الفتنة بنسف الثقة باللّه تعالى من عمل المنافقين الدخلاء وسلاحها الغزو النفسي، فإن جاهلية الحكم بالهوى سلاحها العقلانية. مذاهب تقترح بدل الدين، شرعة مقابل شرعة، منهاج عوض منهاج. ولسنا ندافع عن النصرانية التي انتقد إفسادَها للبشر نصارى مثل هوبز وصاحبيه، أو ملاحدة مثل مكيافلي وفولتير وإخوانهم لكن ندلُّ العلمانية على سلفها وأصولها قبل ظهور المذهب القومي.

هل ولدت العلمانية «والدين المدني» القومية في تاريخ أوروبا؟ هل كان العكس على هامش تاريخ المسلمين منذ قرن، فولدت القومية العلمانية؟ أيهما في عقلية المثقفين شرط للآخر؟ وأيهما المشروط؟

في النظرة الإسلامية القرآنية السنية تلازم: عبية الجاهلية في اللسان النبوي هي حمية الجاهلية الواردة في سورة الفتح. والحكم بغير ما أنزل اللّه جاهلية هوى، سواء كان هذا الهوى ميلا للشهوة ساذجا، أو كان حسابا للمصلحة مفلسفا إن كانت المصلحة تصطدم مع الاسلام. عصبية قومية، عقلانية علمانية، هذه معادلة جاهلية تامة جهلا وعنفا.

في غزوة الحديبية تعبأت النخوة القريشية لتصد جند اللّه عن دخول مكة. «القومية العربية» في ذلك الإبان كانت لقريش دينَها القومي، «دينها المدني»، أصنام، وحج، ومصالح اقتصادية، وهيبة سياسية، وكلها لا تثبت إن دخل محمد ﷺ وأصحابه ولو حجاجا. لذا نهضت «القومية» لمحاربة الإسلام.

الآيات من سورة الأحزاب توصي المؤمنات بالاستقرار في البيت كما يليق بالمتقيات، وأن لا يخضعن بالقول وأن يقلن قولا معروفا، وأن لا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى. في الآيات الأخرى التي وردت فيها كلمة «جاهلية» تحدد مفهوم الكلمة القرآني في بعده النفسي الفكري، في مجاله السياسي العسكري التربوي. هنا تحدد الآيات الكريمة الموجهة لنساء النبي ﷺ وللمؤمنات من ورائهن الناحية السلوكية العملية اليومية للمجتمع الإسلامي. يتقدم التوجيهَ نفيُ المماثلة مع المجتمع الجاهلي والسلوك الجاهلي: «لستن كأحد من النساء» ليكتمل عندنا تصور عام للإسلام في مقابل الجاهلية، بالمخالفة الواجبة لسمتهم، أي لنمط حياتهم، في الأسرة كما في السياسة والحكم، والنفسية والعقلية.

الإسلام يخالف الجاهلية، منطلقا وأهدافا، شكلا ومضمونا. يا من يحلمون بوعاء القومية يحتوي أصالة! أي مضمون «أصيل» يليق أن تضمه حنايا القومية الانفعالية إن لم يكن مضمون الأصالة الجاهلية؟ والجاهلية معنى سار في التاريخ، ليس فترة من تاريخ العرب في شبه الجزيرة. الجاهلية عصبية قبل كل شيء، أي تقلص في الوجود من الانتساب إلى اللّه عز وجل إلى الانتساب القومي لا غير، ثم هي نكوص نفسي عن الصدق والثقة باللّه تعالى، ونكوص فكري عن التلقي للحق الموحى به، ونكوص عن أخلاقية السلوك، ونكوص بكل ذلك عن عالمية الدعوة، وعن خلود الرسالة، وعن مواجهة حقائق الآخرة بعد الموت. القومية العلمانية آفاق نكوص وعنف.

ولا حول ولا قوة إلا باللّه العلي العظيم.

«وإنه لذكر لك ولقومك»

قال مولانا جلت عظمته يوصي رسوله ﷺ لنسمع فنتبع: ﴿فَٱسْتَمْسِكْ بِٱلَّذِيٓ أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ وَإِنَّهُۥ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْـَٔلُونَ﴾[1].

هذا الذي أوحي إليه ﷺ هو مضمون الرسالة، به تميزت معالم الإسلام عن شرعة الجاهلية تميزاً رفع نسب من تلقى الوحي ومن آمن به معه إلى السماء، بينما بقيت نسبة القومية ومن لصق بها وتعصب لها وشيجة أرضية. الوحي ومرتبته السامية ومصدره الإلهي رفع ذكر الوشيجة القومية، فلا تذكر العروبة إلا ذكر معها الإسلام. لغة العرب حملت الوحي وأعطته خصائصها البلاغية، ومن ثم ارتفعت إلى الخلود، فألفاظها ومبانيها مراكب لأسراره ومعانيه. وبصحبتها للوحي، ولزومها له وخدمتها، أمكن لها أن تُصبح طول تاريخ الإسلام والمسلمين ذات الأثر الحاسم في تحديد الفقه الإسلامي وتوجيه الأدب الإسلامي، وصبغ الحضارة الإسلامية. حتى إن لغات الشعوب الإسلامية غير العربية، مثل اللغة الفارسية وهي لغة عريقة راقية، واللغة التركية، والأردو وهي أحدث منهن، ما وسعها إلا أن تستقي من معين لغة العرب المشرفة بالوحي لتكتسب بعض الروحانية فتعبر عن بعض حاجات المسلمين العجم ما دون الحاجة القلبية الإيمانية التي لا يروي غلتها إلا اللفظ العربي، لفظ القرآن الكريم.

(1) سورة الزخرف، الآيتان: 43 و44.

ذكر اللغة العربية سار في الأرض طولا وعرضا، وسار في التاريخ، وله الخلود. ولا نذكر العربية دون ذكر العرب الذين نشأت في أحضانهم، ونطقت بها فطرتهم، وانبثقت عنها عبقريتهم. فيأتي العربي القومي في هذا القرن الخامس عشر المبارك على الأمة إن شاء الله تعالى فينتشي بلغته المعظمة، ويفاخر النجوم بأمجاده القومية المجلوة جلوة العروس في هذه اللغة حاملة التاريخ، ممددة الأصالة، ضامنة الهوية. ينسى، (بل غالبا ما يجهل بكل بساطة) أن لغته لولا الوحي الذي غشيها لكانت لغة غابرة، لولا القرآن الذي بلورها لانمسخت، لولا الإسلام العظيم الذي رفعها من ماديتها الوثنية لما رفعت يوما رأسا، ولا سجلت تاريخا، ولا كان لأهلها من الأصالة ما يستحق الفخر، ومن الهوية ما يليق بالذكر.

يثبت اللّه عز وجل في هذه الآية: الكريمة من سورة الزخرف أن الوحي هو مناط عز العرب، قومه ﷺ، وأنه السبب الأول والأخير الذي به يخلد ذكره ﷺ وذكر قومه. الوحي أعطى القوم هذه الكرامة لما قبلوه واتبعوه، لا اللغة ولا العرق ولا التاريخ القبلي الهمجي.

قلنا آنفا: إن اللغة العربية أعطت الوحي خصائصها البلاغية. سايرنا في التعبير ما درج عليه الناس في التخاطب من نسبة الأشياء بعضها إلى بعض، ونسبة الأفعال إلى مصادرها الأرضية المخلوقة. إن الله عز وجل مدبر الكون وخالقه هو يسر للعربية ظروفها، خص العرب وهم قوم من خلقه بما علم أنه يناسب ما يريد إظهاره من رسالته الخاتمة، وألهمهم إلهام الفطرة لسانا أعده على مر الأزمان ليكون وعاء لوحيه. واللّه سبحانه وتعالى بالغ أمره.

إذا كان القومي العربي ملحدا ماديا، أو كان غافلا عن اللّه عز وجل، فسرعان ما يعبر عن هوسه فيضيف الإسلام إلى العروبة إضافة الظاهرة إلى سببها، ويضيف القرآن إلى اللسان العربي وكأنه بعض إنتاجه، ويزعم أن الإسلام دين العرب قبل كل شيء، أو أن العرب عرب أماجد بقطع النظر عن كل دين. فإذا كان معتزا بالإسلام عن إيمان أو عن حمية تراثية سمعته يقلب مدلول الآيات الكريمة، فلا يعزو للوحي شرف العروبة، بل يمتن على العالم بأن قومه العرب هم نشروا هذه الرسالة العالمية العظيمة بعد أن حملوها في أحضانهم. وسمعته يؤلف المكونات العربية لعبقرية الرسول العربي، من أين جاء هذا الرسول؟ في أية بيئة تربى؟ بمن تأثر؟ ولو كان العرب الجاهليون أصحاب ثقافة مكتوبة لقال: لمن قرأ هذا الرسول؟ وبأي فلسفة تغذى؟

الإسلام في نظر المادي الملحد، والرسالة والرسول، موجة من موجات التاريخ العربي، فهو من أمجاد العروبة الخالد. الإسلام ما هدم إلا القليل من عادات العرب، فهو إصلاحية عربية أهلت الحضارة العربية الأصيلة لتخرج للعالم فتعمه.

الإسلام في نظره ثورة عربية وحدت العرب فأصبحوا قوة سياسية عسكرية بها خرجوا من نطاقهم المحلي إلى المصير الباذخ.

«الله ابتعثنا»

جهِل أولئك الوحي ومصدرَه ومعناه فقلبوا الحقائق. وعَلِم كلَّ ذلك، معاناة تاريخية، وتشربا قلبيا، واقتناعا عقليا، أصحابُ رسول الله ﷺ فلمسوا ما وقع في حياتهم من تغيير ونسبوا الأثر إلى مصدره. عمر بن الخطاب رضي الله عنه علم أن العرب ما عزوا إلا بالإسلام فقال قولته المشهورة: «إنا كنا أذل قوم فأعزنا الله بالإسلام. فمهما نطلب العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله» قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين. عاش هو جاهلية العرب، قاسى منها، كان أحد أساطينها، رأى موكب الشرف كيف تحرك، ارتفع في كفالة الموكب الشريف من حضيض شركه، ساهم بجهاده الشاكر في تخليص الجماعة الأولى ثم المجتمع العربي الإسلامي من عبيّة الجاهلية، كان في القيادة فأمكنه متابعة المسيرة، وأمكنه أن يدرك مكان الوحي وهدايته في العملية كلها. ذلك وأمثاله لا يقلبون الوضع، بل يستمعون امتنان اللّه عز وجل على العرب حيث رفع لهم ذكرا بنزول الوحي بلسانهم فيشكرون، ويستمعون أنهم مسؤولون عن رعاية الوحي والاستمساك به، والجهاد لنشره ونصره، فيخشون المسؤولية يوم القيامة، ويهبون لتبليغ الرسالة حاملين مسؤوليتها (بمفهوم الكلمة العصري).

هذا جندي من جنود عمر رضي الله عنهما اسمه ربعي بن عامر، جندي من أولئك المسلمين الذين عرفوا بالمعاناة ما هي الجاهلية وما هو الإسلام وما موقع العروبة بينهما، يدخل على رستم قائد

الفرس مفاوضا، فينطق بكلمات تنم عن درجة الاقتناع الإيماني، وعن درجة الوعي العقلي، وعن درجة التصميم الجهادي، لأولئك العرب المسلمين الذين نشروا الإسلام عن شكر لمنة الله عليهم بالإسلام، عن مسؤولية. قال في ذلك البساط المستكبر وهو في لباسه الخشن برمحه القصيرة وهيئته الساذجة: «الله ابتعثنا ليخرج بنا من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جَور الأديان إلى عدل الإسلام».

لم يقرأ ذلك العربي ماركس، ولم يتخرج في تنظيم لينيني، ولم يدخل في حوار مثقفينا حول علاقات القومية بالوحدة والاشتراكية. ما نطق به كان برنامج الإسلام في خطواته العالمية، في بداية الفتح الإسلامي.

ذهب مباشرة إلى نقطة القوة، إلى منطق الحق، إلى الإيمان بالله عز وجل إلها مطاعا أمر المسلمين أن يحرروا البشر من كل عبودية لغيره سبحانه. نسبة إلى الله عز وجل رفعت ذلك الجيل القوي إلى عالمية الدعوة وأخوة البشر، بينما ترى القومي العربي المعاصر يلتف في عباءة قوميته لتعطيه أصالة بين البشر. تراه يرفع أعلام قوميته ليلتف حولها أشتات عرب ضاعت منهم هويتهم. أولئك اعتزوا بالإسلام فانطلقوا ليحرروا البشر، وهؤلاء التصقوا بالعروبة فاعتزلوا في الخصوصية القومية عساهم يستعيدون مزقة من إنسانيتهم.

ثم يتحدث ربعي عن ضيق الدنيا بالشرك والكفر والظلم، وعن سعتها بالإسلام، والعبارة واسعة حافلة بنوايا أمة في مسيرة النصر. ويتحدث عن عدل الإسلام. وكان عدل عمر نموذجا ماثلا عاش ربعي في وارف ظلاله، لم يكن عدل الإسلام برنامجا يوتوبيا.

إلى قيادة العالم يا عرب

ينتظر المسلمون العجم من المسلمين العرب أن يأخذوا زمام النهضة الإسلامية. المسلمون في العالم ينظرون إلى المسلمين العرب نظرة اعتراف بالجميل، ينظرون فيهم إلى أبناء الصحابة المجاهدين. سفهاء العرب المتنكرون للإسلام، المستمسكون بالعبية الجاهلية، إنما ينفخون في رماد، لأن ركب الإسلام المتيقظ المنبعث أصبح في منطق السياسة العالمية المرشح الوحيد للتقدم بالمسلمين، ولأن المسلمين العرب لا يزالون المرشحين لقيادة هذا الركب بحكم رحمهم بالنبي العربي وتمكنهم من لغة الوحي التي بها شرُفوا.

العرب هم نواة الأمة الإسلامية، كانوا ويبقون، بإسلامهم وعروبتهم، بإسلامهم قبل عروبتهم. وإنها لمسؤولية ما هي بالزعامة. إنها لرسالة، ما هي بالسلطان تحوطه القوة. ﴿وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَّكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْأَلُونَ ﴾[1].

سمع التاريخ مقالة ربعي حين ترجم على لسان المستضعفين الوارثين برنامج الإسلام في العالم، والواعون من المسلمين اليوم يخاطبون العرب ويناشدونهم ليطبقوا ذلك البرنامج، ويقودوا الجهاد كما كان الجهاد يوم ذلك الإعلان.

(1) سورة الزخرف، الآية: 44.

هذا واحد من خيار علماء المسلمين المعاصرين، أبو الحسن الندوي، أحسن الله إليه، يرسم للعرب، وهو الهندي الجنسية، طريق القيادة العالمية للعرب، ويحدد شروطها. نتركه يتكلم عن ترهات القوميين منا، عاليًا عنها. قال:

«إن الطريق إلى هذه القيادة ممهدة ميسورة للعرب، وهي الطريق التي جربوها في عهدهم الأول. الإخلاص للدعوة الإسلامية، واحتضانها، وتبنيها، والتفاني في سبيلها، وتفضيل منهج الحياة الإسلامي على جميع مناهج الحياة.

«وبذلك -من غير قصد وإرادة لنيل هذه القيادة وتبوئها- تخضع لهم الأمم الإسلامية في أنحاء العالم، وتتهالك على حبهم وإجلالهم وتقليدهم. وبذلك تنفتح لهم أبواب جديدة، وميادين جديدة في مشارق الأرض ومغاربها، الميادين التي استعصت على غزاة الغرب ومستعمريه وثارت عليه، وتدخل أمم جديدة في الإسلام، أمم فتية في مواهبها وقواها وذخائرها، أمم تستطيع أن تعارض أوروبا في مدنيتها وعلومها إذا وجدت إيمانا جديدا، ودينا جديدا، وروحا جديدا، ورسالة جديدة.

«إلى متى أيها العرب تصرفون قواكم الجبارة التي فتحتم بها العالم القديم في ميادين ضيقة محدودة؟ وإلى متى ينحصر هذا السيل العرم -الذي جرف بالأمس المدنيات والحكومات- في حدود هذا الوادي الضيق، تصطرع أمواجه، ويلتهم بعضها بعضا؟! إليكم هذا العالم الإنساني الفسيح الذي اختاركم الله لقيادته، واجتباكم لهدايته، وكانت البعثة المحمدية فاتحة هذا العهد الجديد في تاريخ

أمتكم، وفي تاريخ العالم جميعا، وفي مصيركم ومصير العالم جميعا. فاحتضنوا هذه الدعوة الإسلامية من جديد، وتفانوا في سبيلها، وجاهدوا فيها»[1]. ﴿وَجَاهِدُوا فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ ٱجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيداً عَلَيْكُمْ وَتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلاَةَ وَآتُواْ ٱلزَّكَاةَ وَٱعْتَصِمُواْ بِٱللَّهِ هُوَ مَوْلاَكُمْ فَنِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾[2].

وبهذا نختم، وبالصلاة والسلام على النبي العربي صفوة الله من خلقه والهادي المبلغ الأمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

(1) نقلا عن كتاب «ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص: 318 و319.
(2) سورة الحج، الآية: 78.

الفهرس


دار إقدام للطباعة والنشر